This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

+ *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.

+ *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.

+ *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.

+ *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at `http://books.google.com/`

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 020099907

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

فهرست كتاب اعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني

صحيفة	
٢	خطبة الكتاب
٤	فصل في ان نبوة النبي صلى الله عليه وسلم معجزتها القرآن
٨	فصل في الدلالة على ان القرآن معجز
١٨	فصل في جملة وجوه اعجاز القرآن
٢٧	فصل في شرح ما بينا من وجوه اعجاز القرآن
٢٨	فصل في نفي الشعر من القرآن
٣١	فصل في نفي السجع من القرآن
٣٦	فصل في ذكر البديع من الكلام
٥٤	فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن
٦٢	خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم
٦٢	خطبة له صلى الله عليه وسلم
٦٢	خطبة له صلى الله عليه وسلم
٦٢	خطبة له صلى الله عليه وسلم في أيام التشريق
٦٣	خطبته صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة
٦٣	خطبته صلى الله عليه وسلم بالخيف
٦٤	خطبة له صلى الله عليه وسلم
٦٤	كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملك فارس
٦٤	كتاب له صلى الله عليه وسلم الى النجاشي
٦٤	نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية
٦٥	خطبة لابي بكر الصديق رضي الله عنه
٦٥	عهد لأبي بكر الصديق الى عمر رضي الله عنهما
٦٦	نسخة كتاب
٦٧	عهد من عهود عمر رضي الله عنه
٦٧	ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه
٦٧	خطبة له رضي الله عنه
٦٨	كتابه الى علي حين حضر رضي الله عنهما
٦٩	خطبة أخرى لعلي رضي الله عنه
٦٩	وكتب علي رضي الله عنه الى عبد الله ابن عباس رحمه الله وهو بالبصرة
٦٩	كلام لابن عباس رضي الله عنه
٦٩	خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه
٧٠	خطبة لمعاوية بن أبي سفيان
٧٠	خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
٧١	خطبة للحجاج بن يوسف
٧١	خطبة لقس بن ساعدة الايادي
٧٢	خطبة لأبي طالب
١١٦	فصل في التحدي
١١٧	فصل في قدر المعجز من القرآن
١١٩	فصل في انه هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة
١١٩	فصل فيما يتعلق به الاعجاز
١٢٠	فصل في وصف وجوه من البلاغة
١٢٩	فصل في حقيقة المعجز
١٣١	فصل في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأمور تتصل بالاعجاز

(تمت الفهرست)

Digitized by Google

Digitized by Google

al-Bāqilānī, Abū Bakr

كتاب

I'jāz al-Qur'ān

إعجاز القرآن

تأليف الامام الكبير والقدوة الشهير شمس خاتمة
المحققين وعمدة الأئمة المدققين القاضي أبي بكر
الباقلاني رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه
آمين

طبع على نفقة الاديبين

محمد القليوبي عطاالله * ومحمد فرج الجزار

(غفر الله لهما ولوالديهما ولجميع المسلمين آمين)

(حقوق الطبع محفوظة لهما)

الطبعة الاولى

(بمطبعة الاسلام بحارة السقائين بمصر المحميه)

(سنة ١٣١٥ هجرية)

طبع برخصة نظارة الداخلية

Digitized by Google

2269
.1535
.349
.1898

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم اليه من الايمان ★ والمتمم احسانه بما أقام لهم من جلي البرهان ★ الذى حمد نفسه بما أنزل من القرآن ليكون بشيرا ونذيرا ★ وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ★ وهاديا الى ما ارتضى لهم من دينه ★ وسلطانا أوضح وجه تبيينه ★ ودليلا على وحدانيته ★ ومرشدا الى معرفة عزته وجبروته ★ ومفصحا عن صفات جلاله ★ وعلو شأنه وعظيم سلطانه ★ وحجة لرسوله الذى أرسله به وعلما على صدقه ★ وبينة على انه أمينه على وحيه وصادع بأمره ★ فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله ★ ورسالة تشتمل على تصحيح قول مؤديها ★ بين فيه سبحانه ان حجته كافية هادية لايحتاج مع وضوحها الى بينة تعدوها أو حجة تتلوها وان الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات والشك فى المشاهدات ★ ولذلك قال عز ذكره ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وقال عز وجل ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون فله الشكر على جزيل احسانه وعظيم منته والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله وسلم ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ★ وأولى ما يلزم بحثه ★ ما كان لاصل دينهم قواما ★ ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ★ وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهانا ولمعجزته ثبتا وحجة لاسيما والجهل ممدود الرواق ★ شديد النفاق ★ مستول على الآفاق ★ والعلم الى عفاء ودروس ★ وعلى خفاء وطموس ★ وأهله فى جفوة الزمن البهيم ★ يقاسون من عبوسه لقاء الاسد الشتيم ★ حتى صار ما يكابدونه قاطعا

عن الواجب من سلوك مناهجه والاخذ فى سبله فالناس بين رجلين ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد وآخر مصدود عن نصرته مكدود فى صنعته فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين فى أصول الدين وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين وقد قل أنصاره واشتغل عنه أعوانه وأسلمه أهله فصار عرضة لمن شاء ان يتعرض فيه حتى عاد مثل الامر الاول على ماخاضوا فيه عند ظهور أمره فمن قائل قال انه سحر وقائل يقول انه شعر وآخر يقول انه أساطير الاولين وقالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا الى الوجوه التى حكى الله عز وجل عنهم انهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه اليه * وذكر لى عن بعض جهالهم انه جعل يعدله ببعض الاشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر وقد سبقهم الى عظم مايقولونه اخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم الا ان أكثر من كان طعن فيه فى أول أمره استبان رشده وأبصر قصده فتاب وأناب وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوة اتقانه لا التصرف لسانه بل لهداية ربه وحسن توفيقه والجهل فى هذا الوقت أغلب والملحدون فيه عن الرشد أبعد وعن الواجب أذهب وقد كان يجوز ان يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن وتكلم فى فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ان يبسطوا القول فى الابانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول فى الخبر ودقيق الكلام فى الاعراض وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو فالحاجة الى هذا أمس والاشتغال به أوجب وقد قصر بعضهم فى هذه المسئلة حتى أدى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها ورأوا ان عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ولا وجه لها حين رأوهم قد برعوا فى لطيف ما أبدعوا وانتهوا الى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا ثم رأوا ماصنفوه فى هذا المعنى غير كامل فى بابه ولا مستوفى فى وجهه قد أخل بتهذيب طرقه وأهمل ترتيب بيانه وقد يعذر بعضهم فى تفريط يقع منه فيه وذهاب عنه لان هذا الباب مما يمكن احكامه بعد التقدم فى أمور شريفة المحل عظيمة المقدار دقيقة المسالك لطيفة المأخذ واذا انتهينا الى تفصيل القول فيها استبان ماقلناه من الحاجة الى هذه المقدمات حتى يمكن بعدها احكام القول فى هذا الشأن وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ماقاله المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى * وسألنا سائل ان نذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التى تعرض للجهال وتنتهى الى مايخطر لهم ويعرض لافهامهم من الطعن فى وجه المعجزة فأجبناه الى

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 020099907
Digitized by Google

ذلك متقربين الى الله عزّ وجلّ ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومعونته ونحن نبين ماسبق فيه البيان من غيرنا ونشير اليه ولانبسط القول لئلا يكون ماألفناه مكررا ومقولا بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب خاصة ونضيف اليه مايجب وصفه من القول فى تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت من جهته سبل البراعة ومايشتبه له ظاهر الفصاحة ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية والمعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع ثم مااختلفت به مذاهب مستعمليه فى فنون ماينقسم اليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجارى الخطاب وان كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول مايبين فيه التفاصح وتقصد فيه البلاغة لان هذه أمور يتعمل لها فى الاغلب ولايتجوز فيها ثم من بعد هذا الكلام الدائر فى محاوراتهم والتفاوت فيه أكثر لان التعمل فيه أقل الا من غزارة طبع أوفطانة تصنع وتكلف ونشير الى مايجب فى كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظم محل القرآن وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه وتجاوزه الحد الذى يصح أو يجوز ان يوازن بينه وبينها أو يشتبه ذلك على متأمل ولسنا نزعم انه يمكننا ان نبين مارمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا وعن وجه اللسان غافلا لان ذلك مما لاسبيل اليه الا ان يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا اليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه وعرف جملة من طرق المتكلمين ونظر فى شئ من أصول الدين وانما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من وصفناه فقال كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون وقال انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

فصل فى أن نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم معجزتها القرآن

الذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة اعجاز القرآن ان نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة وان كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة الا ان تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ونقل بعضها نقلا متواترا يقع به العلم وجودا وبعضها مما نقل نقلا خاصا الا انه حكى بمشهد من الجمع العظيم انهم شاهدوه فلو كان الامر على خلاف ماحكى لانكروه أولا نكره بعضهم فحل محل المعنى الاول وان لم يتواتر أصل النقل فيه وبعضها مما نقل من جهة الآحاد وكان وقوعه بين يدى الآحاد فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين ولزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها الى يوم القيامة على حد واحد وان كان قد

يعلم بعجز أهل العصر الاول عن الاتيان بمثله وجه دلالته فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أول العصر عن مثله وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الاتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الاول وانما ذكرنا هذا الفصل لما حكي عن بعضهم انه زعم انه وان كان قد عجز عنه أهل العصر الاول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه ويكفي عجز أهل العصر الاول في الدلالة أنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه فأما الذي يبين ماذكرناه من ان الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه سور كثيرة وآيات نذكر بعضها وننبه بالمذكور على غيره فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه فمن ذلك قوله تعالى الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد فأخبر انه أنزله ليقع الاهتداء به ولا يكون كذلك الا وهو حجة ولا تكون حجة ان لم تكن معجزة وقال عزوجل وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله فلولا ان سماعه اياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه ولا يكون حجة الا وهو معجزة وقال عزوجل وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين وهذا بين جدا فيما قلناه من انه جعله سببا لكونه منذرا ثم أوضح ذلك بأن قال بلسان عربي مبين فلولا ان كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الاول به وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة الا وقد أشبع فيها بيان ماقلناه ونحن نذكر بعضها التستدل بذلك على مابعده وكثير من هذه السور اذا تأملته فهو من أوله الى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته فمن ذلك سورة المؤمن قوله عزوجل حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب الى ان قال مايجادل في آيات الله الا الذين كفروا فدل على ان الجدال في تنزيله كفر والحاد ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم بقوله عزوجل كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم الى آخر الآية فتوعدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنبهم في تكذيب الانبياء ورد براهينهم فقال فأخذتهم فكيف كان عقاب ثم توعدهم بالنار فقال وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم وما وعدهم عليه من المغفرة فقال الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم فلولا انه برهان قاهر لم يذم الكفار على العدول عنه ولم يحمد المؤمنين على المصير اليه ثم ذكر تمام الآيات في دعاء الملائكة

المؤمنين ثم عطف على وعيد الكافرين فذكر آيات ثم قال هو الذى يريكم آياته فأمر بالنظر فى آياته وبراهينه الى ان قال رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق فجعل القرآن والوحى به كالروح لانه يؤدى الى حياة الابد ولانه لا فائدة للجسد بدون الروح فجعل هذا الروح سببا للانذار وعلما عليه وطريقا اليه ولولا ان ذلك برهان بنفسه لم يصح ان يقع به الانذار والاخبار عما يقع عند مخالفته ولم يكن الخبر عن الواقع فى الآخرة عند ردهم دلالته من الوعيد حجة ولا معلوما صدقه فكان لا يلزمهم قبوله فلما خلص من الآيات فى ذكر الوعيد على ترك القبول ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات فقال أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم الى آخر الآية ثم بين ان عاقبتهم صارت الى السوآى بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبينات وكانوا لا يقبلونها منهم فعلم ان ماقدم ذكره فى السورة بينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام ومجيئهما بالبينات ومخالفتهم حكمها الى ان قال الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار فأخبر ان جدالهم فى هذه الآيات لا يقع بحجة وانما يقع عن جهل وان الله يطبع على قلوبهم ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم وعنادهم واستكبارهم ثم ذكر كثيرا من الاحتجاج على التوحيد ثم قال ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ثم بين هذه الجملة وان من آياته الكتاب فقال الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون الى ان قال وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله فدل على ان الآيات على ضربين أحدهما كالمعجزات التى هى أدلة فى دار التكليف والثانى الآيات التى ينقطع عندها العذر ويقع عندها العلم الضرورى وانها اذا جاءت ارتفع التكليف ووجب الاهلاك الى ان قال فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا فاعلمنا انه قادر على هذه الآيات ولكنه اذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين وكذلك ذكر فى حم السجدة على هذا المنهاج الذى شرحنا فقال عز وجل حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فلولا انه جعله برهانا لم يكن بشيرا ولا نذيرا ولم يختلف بأن يكون عربيا مفصلا أو بخلاف ذلك ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ولولا انه حجة لم يضرهم الاعراض عنه وليس لقائل ان يقول قد يكون حجة ويحتاج فى كونه حجة الى دلالة أخرى كما ان الرسول حجة ولكنه يحتاج الى دلالة على صدقه

وصحة نبوته وذلك انه انما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل ولم يذكر حجة غيره ويبين ذلك انه قال عقيب هذا قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ فأخبر انه مثلهم لولا الوحى ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحى والتنزيل وعرفوا هذه الحجة ثم تصرف فى هذا الاحتجاج على الوحدانية والقدرة الى ان قال فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المكذبين بآيات الله من قوم عاد وثمود فى الدنيا ثم توعدهم بأمر الآخرة فقال ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون الى انتهاء ماذكره فيه ثم رجع الى ذكر القرآن فقال وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ثم أثنى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول فقال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا ثم قال واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم وهذا ينبه على ان النبى صلى الله عليه وسلم يعرف اعجاز القرآن وانه دلالة له على جهة الاستدلال لان الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان ونحن نبين مايتعلق بهذا الفصل فى موضعه ثم قال ان الذين يلحدون فى آياتنا الى ان قال ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا وان كان متأولا على انه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التى أبنا انها تقع فى الثانى فلا يخرج عن ان يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من انه لا يأتيه مايبطله من شبهة سابقة تقدح فى معجزته أو تعارضه فى طريقه وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك فى وجه دلالته وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه ثم قال ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى فأخبر انه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى رده اما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم وكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه وبأنهم لا يبين لهم وجه الاعجاز فيه لانه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الامور وانه اذا تحداهم الى ماهو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على مابينه فى وجه هذا الفصل الى ان قال قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد والذى ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور فكرهنا سرد القول فيها فليتأمل المتأمل ماد للناه عليه يجده كذلك ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما

أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم فأخبران الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه وان ذلك يكفى فى الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم ويدل عليه قوله عز وجل تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقوله أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته فدل على انه جعل قلبه مستودعا لوحيه ومستنزلا لكتابه وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التى وصفناها فبان بهذا وبنظائره ماقلناه من ان بناء نبوته صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته وصار له من الحكم فى دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن ان يعلم انه كلام الله تعالى وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لاتدل على أنفسها الا بأمر زائد ووصف مضاف اليها لان نظمها ليس معجزا وان كان مايتضمنه من الاخبار عن الغيوب معجزا وليس كذلك القرآن لانه يشاركها فى هذه الدلالة ويزيد عليها فى ان نظمه معجز فيمكن ان يستدل به عليه وحل فى هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه وتعالى لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم انه فى الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم انه كلام الله وان اختلف الحال فى ذلك من بعض الوجوه لان موسى عليه السلام سمعه من الله عز وجل وأسمعه نفسه متكلما وليس كذلك الواحد منا وكذلك قد يختلفان فى غير هذا الوجه وليس ذلك قصدنا بالكلام فى هذا الفصل والذى نرومه الآن مابينا من اتفاقهما فى المعنى الذى وصفنا وهو انه عليه السلام يعلم ان مايسمعه كلام الله من جهة الاستدلال وكذلك نحن نعلم مانقرؤه من هذا على جهة الاستدلال

فصل فى الدلالة على ان القرآن معجزة

قد ثبت بما بينا فى الفصل الاول ان نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم مبنية على دلالة معجزة القرآن فيجب ان نبين وجه الدلالة من ذلك قد ذكر العلماء ان الاصل فى هذا هو ان نعلم ان القرآن الذى هو متلو محفوظ مرسوم فى المصاحف هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وانه هو الذى تلاه على من فى عصره ثلاثا وعشرين سنة والطريق الى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذى يقع عنده العلم الضرورى به وذلك انه قام به فى المواقف وكتب به الى البلاد ونحمله عنه اليها من تابعه وأورده على غيره من لم يتابعه

حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشتبه على أحد ولا يحتمل انه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه ويأخذه على غيره ويأخذ غيره على الناس حتى انتشر ذلك فى أرض العرب كلها وتعدى الى الملوك المعاقبة لهم كملك الروم والجم والقبط والحبش وغيرهم من ملوك الاطراف ولما ورد ذلك مضادا لاديان أهل ذلك العصر كلهم ومخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة فى الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملته ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالايمان على جملته وتفاصيله وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال وتنقلت به الرحال وتعلمه الكبير والصغير اذ كان عمدة دينهم وعلما عليه والمفروض تلاوته فى صلواتهم والواجب استعماله فى أحكامهم ثم تناقله خلف عن سلف ثم مثلهم فى كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله حتى انتهى الينا ما وصفناه من حاله فلن يتشكك أحد ولا يجوز ان يتشكك مع وجود هذه الاسباب فى انه أتى بهذا القرآن من عند الله فهذا أصل واذا ثبت هذا الاصل وجودا فانا نقول انه تحداهم الى ان يأتوا بمثله وقرعهم على ترك الاتيان به طول السنين التى وصفناها فلم يأتوا بذلك والذى يدل على هذا الاصل انا قد علمنا ان ذلك مذكور فى القرآن فى المواضع الكثيرة كقوله وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وكقوله أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون فجعل عجزهم عن الاتيان بمثله دليلا على انه منه ودليلا على وحدانيته وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم انه لا يمكن ان يعلم بالقرآن الوحدانية وزعم ان ذلك مما لا سبيل اليه الا من جهة العقل لان القرآن كلام الله عز وجل ولا يصح ان يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولا فقلنا اذا ثبت بما بيناه اعجازه وان الخلق لا يقدرون عليه ثبت ان الذى أتى به غيرهم وانه انما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم وانه صدق واذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقا وليس اذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع ان يعرف من الوجهين وليس الغرض تحقيق القول فى هذا الفصل لانه خارج عن مقصود كلامنا ولكنا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه ومن ذلك قوله عز وجل قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقوله أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين فقد ثبت بما بيناه انه تحداهم اليه ولم يأتوا بمثله وفى هذا أمران أحدهما التحدى اليه والآخر انه لم يأتوا له بمثل والذى يدل على ذلك النقل المتواتر

Digitized by Google

الذى يقع به العلم الضرورى فلا يمكن جحود واحد من هذين الامرين وان قال قائل لعله لم يقرأ عليهم الآيات التى فيها ذكر التحدى وانما قرأ عليهم ماسوى ذلك من القرآن كان كذلك قولا باطلا يعلم بطلانه مثل مايعلم به بطلان قول من زعم ان القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جمل وانه كتم وسيظهره المهدى أو يدعى ان هذا القرآن ليس هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وانما هو شئ وضعه عمر أو عثمان رضى الله عنهما حيث وضع المصحف أو يدعى فيه زيادة أو نقصانا وقد ضمن الله حفظ كتابه ان يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه و وعده الحق وحكاية قول من قال ذلك يغنى عن الرد عليه لان العدد الذين أخذوا القرآن فى الامصار وفى البوادى وفى الاسفار والحضر وضبطوه حفظا من بين صغير وكبير وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والنسيان ولا التخليط فيه والكتمان ولو زادوا ونقصوا أو غيروا لظهر وقد علمت ان شعر امرئ القيس وغيره لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ولا أن يحفظ كحفظه ولا ان يضبط كضبطه ولا ان تمس الحاجة اليه مساسها الى القرآن لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت لا بل لو غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه وأنكره أربابه فاذا كان ذلك مما لا يمكن فى شعر امرئ القيس ونظرائه مع ان الحاجة اليه تقع لحفظ العربية فكيف يجوز أو يمكن ماذكروه فى القرآن مع شدة الحاجة اليه فى أصل الدين ثم فى الاحكام والشرائع واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه فمنهم من يضبطه لاحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة ادائها ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة ومن الملحدين من يحصله لينظر فى عجيب شأنه وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة على كثرة اعدادهم واختلاف بلادهم وتفاوت أغراضهم ان يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان ويبين ذلك انك اذا تأملت ماذكر فى أكثر السور مما بينا ومن نظائره فى رد قومه عليه و ردغيرهم وقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا وقول بعضهم ان هذا الا اختلاق الى الوجوه التى يصرف اليها قولهم فى الطعن عليه فمنهم من يستهين بها ويجعل ذلك سببا لتركه الاتيان بمثله ومنهم من يزعم انه مفترى فلذلك لا يأتى بمثله ومنهم من يزعم انه دارس وانه أساطير الاولين وكرهنا ان نذكر كل آية تدل على تحديه لئلا يقع التطويل ولو جاز ان يكون بعضه مكتوما جاز على كله ولو جاز ان يكون بعضه موضوعا جاز ذلك فى كله فثبت بما بيناه انه تحدى اليه وانهم لم يأتوا بمثل وهذا الفصل قد بينا ان الجميع قد ذكروه وبنوا عليه فاذا ثبت هذا وجب ان يعلم بعده ان تركهم للاتيان بمثله كان لعجزهم

عنه والذى يدل على انهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن انه تحداهم اليه حتى طال التحدى وجعله دلالة على صدقه ونبوته وتضمن احكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبى ذريتهم فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا الى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم فى لسانهم ومألوف من خطابهم وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال واكثار المراء والجدال وعن الجلاء عن الاوطان وعن تسليم الاهل والذرية للسبى فلما لم يحصل هناك معارضة منهم علم انهم عاجزون عنها بين ذلك ان العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد لاسيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجىء من خلع آلهته وتسفيه رأيه فى ديانته وتضليل آبائه والتغرير عليه بما جاء به واظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته والتصرف على حكم ارادته والعدول عن الفه وعادته والانخراط فى سلك الاتباع بعد ان كان متبوعا والتشييع بعد ان كان مشيعا وتحكيم الغير فى ماله وتسليطه اياه على جملة أحواله والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله وقد علم ان بعض هذه الاحوال مما يدعو الى سلب النفوس دونه هذا والحمية حميتهم والهمم الكبيرة همهم وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم فكيف يجوز أن لا يتوصلوا الى الرد عليه والى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ومايمكن تناوله من غير ان يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر وهو لسانهم الذى يخاطبون به مع بلوغهم فى الفصاحة النهاية التى ليس وراءها مطلع والرتبة التى ليس وراءها مترع ومعلوم انهم لو عارضوه بما تحداهم اليه لكان فيه توهين أمره وتكذيب قوله وتفريق جمعه وتشتيت أسبابه وكان من صدق به يرجع على أعقابه ويعود فى مذهب أصحابه فلما لم يفعلوا شيأ من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة وكان أمره يتزايد حالا فحالا ويعلو شيأ فشيأ وهم على العجز عن القدح فى آيته والطعن فى دلالته علم مما بينا انهم كانوا لا يقدرون على معارضته ولا على توهين حجته وقد أخبر الله تعالى عنهم انهم قوم خصمون وقال لتنذر به قوما لدّا وقال خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين وعلم أيضا ان ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين وقولهم ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وقالوا أفتأتون السحر وأنتم تبصرون وقالوا أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها

فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقوله الذين جعلوا القرآن عضين الى آيات كثيرة فى نحو هذا تدل على انهم كانوا متحيرين فى أمرهم متعجبين من عجزهم يفزعون الى نحو هذه الامور من تعليل وتعذير ومدافعة بما وقع التحدى اليه وعرف الحث عليه وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب وجاهروه ونابذوه وقطعوا الارحام وأخطروا بأنفسهم وطالبوه بالآيات والاتيان بغير ذلك من المعجزات يريدون تعجيزه ليظهروا عليه بوجه من الوجوه فكيف يجوز ان يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم وذلك يدحض حجته ويفسد دلالته ويبطل أمره فيعدلون عن ذلك الى سائر ما صاروا اليه من الامور التى ليس عليها مزيد فى المنابذة والمعاداة ويتركون الامر الخفيف هذا مما يمتنع وقوعه فى العادات ولا يجوز اتقانه من العقلاء والى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام وأكثروا فى هذا المعنى وأحكموه ويمكن ان يقال انهم لو كانوا قادرين على معارضته والاتيان بمثل ما أتى به لم يجز ان يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة والمعرفة بوجوه الفصاحة وهو يستطيل عليهم بانهم عاجزون عن مباراته وانهم يضعفون عن مجاراته ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتى به ويقرعهم ويؤنبهم عليه ويدرك آماله فيهم ويفجع ما يسعى له بتركهم المعارضة وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه وتفخيم أمره حتى يتلو قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان أنذروا انه لا اله الا أنا فاتقون وقوله ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وقوله وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون وقوله هدى للتقين وقوله الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله الى غير ذلك من الآيات التى تتضمن تعظيم شأن القرآن فنها ما يتكرر فى السورة فى مواضع منها ومنها ما ينفرد فيها وذلك مما يدعوهم الى المباراة ويحضهم على المعارضة وان لم يكن متحديا اليه ألا ترى انهم قد كانوا يناقر شعراؤهم بعضهم بعضا ولهم فى ذلك مواقف معروفة وأخبار مشهورة وأيام منقولة وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم فلن يجوز والحالة هذه ان يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها تحداهم اليها أولم يتحدهم ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب فى ذلك أمر آخر وهو انه لو كان مقدورا للعباد لكان قد اتفق الى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم ان يعارضوه به وكانوا لا يفتقرون الى تكلف

وضعه وتعمل نظمه فى الحال فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق وخطبة متقدمة ورسالة سالفة ونظم بديع ولا عارضوه به فقالوا هذا افصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله علم انه لم يكن الى ذلك سبيل وانه لم يوجد له نظير ولو كان وجد له مثل لكان ينقل الينا ولعرفناه كما نقل الينا أشعار أهل الجاهلية وكلام الفصحاء والحكماء من العرب وأدى الينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع بلاغاتهم وصنوف فصاحاتهم فان قيل الذى بنى عليه الامر فى تثبيت معجزة القرآن انه وقع التحدى الى الاتيان بمثله وانهم عجزوا عنه بعد التحدى اليه فاذا نظر الناظر وعرف وجه النقل المتواتر فى هذا الباب وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه وماذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدى وان ما أتى به قد عرف العجز عنه بكل حال قيل انما احتيج الى التحدى لاقامة الحجة واظهار وجه البرهان لان المعجزة اذا ظهرت فانما تكون حجة بان يدعيها من ظهرت عليه ولا تظهر على مدع لها الا وهى معلومة انها من عند الله فاذا كان يظهر وجه الاعجاز فيها للكافة بالتحدى وجب فيها التحدى لانه تزول بذلك الشبهة عن الكل وينكشف للجميع ان العجز واقع عن المعارضة والا فان مقتضى ماقدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب ويتقن مصارف الكلام وكان كاملا فى فصاحته جامعا للمعرفة بوجوه الصناعة لو انه احتج عليه بالقرآن وقيل له ان الدلالة على النبوة والآية على الرسالة ماأتلوه عليك منه لكان ذلك بلاغا فى ايجاب الحجة وتماما فى الزامه فرض المصير اليه ومما يؤكد هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا الآحاد الى الاسلام محتجا عليهم بالقرآن لانا نعلم انه لم يلزمهم تصديقه تقليدا ونعلم ان السابقين الاولين الى الاسلام لم يقلدوه وانما دخلوا على بصيرة ولم نعلمه قال لهم ارجعوا الى جميع الفصحاء فان عجزوا عن الاتيان بمثله فقد ثبتت حجتى بل لما رآهم يعلمون اعجازه ألزمهم حكمه فقبلوه وتابعوا الحق وبادروا اليه مستسلمين ولم يشكوا فى صدقه ولم يرتابوا فى وجه دلالته فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان الى القبول منه أسبق ومن اشتبه عليه وجه الاعجاز واشتبه عليه بعض شروط المعجزات وأدلة النبوات كان أبطأ الى القبول حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه مواده وهذا فصل يجب ان يتمم القول فيه بعد فليس هذا موضع له ويبين ماقلناه ان هذه الآية علم يلزم الكل قبوله والانقياد له وقد علمنا تفاوت الناس فى ادراكه ومعرفة وجه دلالته لان الاعجمى لا يعلم انه معجز الا بأن يعلم عجز العرب عنه وهو يحتاج فى معرفة ذلك الى أمور لا يحتاج اليها من كان من أهل صنعة الفصاحة فاذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم فى توجه الحجة عليه وكذلك لا يعرف

Digitized by Google

المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن مايعرفه العالى فى هذه الصنعة فربما حل فى ذلك محل الاعجمى فى أن لا يتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهى فى الصنعة عنه وكذلك لا يعرف المتناهى فى معرفة الشعر وحده أو الغاية فى معرفة الخطب أو الرسائل وحدها غور هذا الشأن مايعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارع فى هذه العلوم كلها عنه فأما من كان متناهيا فى معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التى يمكن فيها اظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف اعجازه وان لم نقل ذلك أدى هذا القول الى ان يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعرف اعجاز القرآن حين أوحى اليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه وهذا خطأ من القول فصح من هذا الوجه ان النبى صلى الله عليه وسلم حين أوحى اليه القرآن عرف كونه معجزا و بأن قيل له انه دلالة وعلم على نبوتك انه كذلك من قبل ان يقرأه على غيره أو يتحدى اليه سواه ولذلك قلنا ان المتناهى فى الفصاحة والعلم بالاساليب التى يقع فيها التفاصح متى سمع القرآن عرف انه معجز لانه يعرف من حال نفسه انه لا يقدر عليه و يعرف من حال غيره مثل مايعرف من حال نفسه فيعلم ان عجز غيره كعجزه هو وان كان يحتاج بعد هذا الى استدلال آخر على انه علم على نبوة ودلالة على رسالة بأن يقال له ان هذه آية لنبيه وانما ظهرت عليه وادعاها معجزة له و برهانا على صدقه فان قيل فان من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه فكذلك البليغ وان علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره قيل هو مع مستقر العادة وان عجز عن قول الشعر وعلم انه معجز فانه يعلم ان الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم ومتى علم البليغ المتناهى فى صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره لانه كهو لانه يعلم ان حاله وحال غيره فى هذا الباب سواء اذ ليس فى العادة مثل للقرآن يجوز أو يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه فاذا لم يكن لذلك مثل فى العادة وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب و وجد القرآن مباينا لها علم خروجه عن العادة وجرى مجرى مايعلم ان اخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات فهو لا يجوزه من نفسه وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره الا على وجه نقض العادة بل يرى وقوعه موقع المعجزة وهذا وان كان يفارق فلق البحر واخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه وهو انه يستوى الناس فى معرفة عجزهم عنه فكونه ناقضا للعادة من غير تأمل شديد ولا نظر بعيد فان النظر فى معرفة اعجاز القرآن يحتاج الى تأمل ويفتقر الى مراعاة مقدمات والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضع فكل

واحد منها يؤول الى مثل حكم صاحبه فى الجمع الذى قدمنا ومما يبين ما قلناه من ان البليغ المتناهى فى وجوه الفصاحة يعرف اعجاز القرآن وتكون معرفته حجة عليه اذا تحدى اليه وعجز عن مثله وان لم ينتظر وقوع التحدى فى غيره وما الذى يصنع ذلك الغير وهو ما روى فى الحديث ان جبير بن مطعم ورد على النبى صلى الله عليه وسلم فى معنى حليف له أراد ان يفاديه فدخل والنبى صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة والطور وكتاب مسطور فى صلاة الفجر قال فلما انتهى الى قوله ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع قال خشيت ان يدركنى العذاب فأسلم وفى حديث آخر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع سورة طه فأسلم وقد روى ان قوله عز وجل فى أول حم السجدة الى قوله فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون نزلت فى شيبة وعتبة ابنى ربيعة وأبى سفيان بن حرب وأبى جهل وذكر انهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة الى النبى صلى الله عليه وسلم ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام وأرادوا ان يأتيهم بما عنده فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى الى قوله فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فوثب مخافة العذاب فاستحكوه ما سمع فذكر انه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد فقال له عثمان بن مظعون لتعلموا انه من عند الله اذ لم يهتد لجوابه وأبين من ذلك قول الله عز وجل وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدل على ان فيهم من يكون سماعه اياه حجة عليه فان قيل لو كان على ما قلتم لوجب ان يكون حال الفصحاء الذين كانوا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم على طريقة واحدة فى اسلامهم عند سماعه قيل لا يجب ذلك لان صوارفهم كانت كثيرة منها انهم كانوا يشكون منهم من يشك فى اثبات الصانع وفيهم من يشك فى التوحيد وفيهم من يشك فى النبوة ألا ترى ان أبا سفيان بن حرب لما جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلم عام الفتح قال له النبى عليه السلام أما آن لك ان تشهد ان لا اله الا الله قال بلى فشهد قال أما آن لك ان تشهد انى رسول الله قال أما هذه ففى النفس منها شئ فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق شبههم متباينة فمنهم من قلت شبهه لتأمل الحجة حتى تأملها ولم يستكبر فأسلم ومنهم من كثرت شبهه وأعرض عن تأمل الحجة حتى تأملها أو لم يكن فى البلاغة على حدود النهاية فتطاول عليه الزمان الى ان نظر واستبصر وراعى واعتبر واحتاج الى ان يتأمل عجز غيره عن الاتيان بمثله فلذلك وقف أمره ولو كانوا فى الفصاحة على مرتبة واحدة وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة

لتوافقوا الى القبول جملة واحدة فان قيل فكيف يعرف البليغ الذى وصفتموه اعجاز القرآن وما الوجه الذى يتطرق به اليه والمنهاج الذى يسلكه حتى يقف به على جلية الامر فيه قيل هذا سبيله ان يفرد له فصل فان قيل فلم زعمتم ان البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادرا وانما يصرفه الله عنه ضربا من الصرف أو يمنعه من الاتيان بمثله ضربا من المنع أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة و يحصل ماقصده من ايجاب الحجة لان من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الاولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة فالجواب انه لو صح ذلك صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت ان ينظم القصائد و يقول الاشعار وصح لكل ناطق قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ومعلوم ان ذلك غير سائغ ولا ممكن على ان ذلك لو لم يكن معجزا على ماوصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه و وضع من مقدار الفصاحة فى نظمه أبلغ فى الاعجوبة اذا صرفوا عن الاتيان بمثله ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه فكان يستغنى عن انزاله على النظم البديع واخراجه فى المعرض الفصيح العجيب على انه لو كانوا صرفوا على ماادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لانهم لم يتحدوا اليه ولم تلزمهم حجته فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله علم ان ماادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان وفيه معنى آخر وهو ان أهل الصنعة فى هذا الشأن اذا سمعوا كلاما مطمعا لم يخف عليهم ولم يشتبه لديهم ومن كان متناهيا فى فصاحته لم يجز ان يطمع فى مثل هذا القرآن بحال فان قال صاحب السؤال انه قد يطمع فى ذلك قيل له أنت تزيد على هذا فتزعم ان كلام الآدمى قد يضارع القرآن وقد يزيد عليه فى الفصاحة ولا يتحاشاه و يحسب أن ما ألفه فى الجزء والظفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظا ومعنى ولكن ليس الكلام على مايقدره مقدر فى نفسه و يحسبه ظان من أمره والمرجوع فى هذا الى جملة الفصحاء دون الآحاد ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ ونميزه فى ذلك عن سائر أجناس الخطاب ليعلم ان مايقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بين الغلط وان هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله فى محكم كتابه انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس و بسر ثم أدبر

واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر فهم يعبرون عن دعواهم انهم يمكنهم ان يقولوا مثله بأن ذلك من قول البشر لان ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل الى الحد الذى يتجاوز امكان معارضته ومما يبطل ماذكروه من القول بالصرفة انه لو كانت المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وانما يكون المنع معجزا فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه وليس هذا بأعجب مما ذهب اليه فريق منهم ان الكل قادرون على الاتيان بمثله وانما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا اليه به ولا بأعجب من قول فريق منهم انه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى فى هذا الباب وانه يصح من كل واحد منهما الاعجاز على حد واحد فان قيل فهل تقولون بان غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالتوراة والانجيل والصحف قيل ليس شئ من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الاخبار بالغيوب وانما لم يكن معجزا لان الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ولانا قد علمنا انه لم يقع التحدى اليه كما وقع التحدى الى القرآن ولمعنى آخر وهو ان ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة مايقع به التفاضل الذى ينتهى الى حد الاعجاز ولكنه يتقارب وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا فى سائر الالسنة ويقولون ليس يقع فيها من التفاوت مايتضمن التقديم العجيب ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الالسنة للشئ الواحد من الاسماء ما نعرف من اللغة وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناوله العربية وكذلك التصرف فى الاستعارات والاشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التى يجئ تفصيلها بعد هذا ويشهد لذلك من القرآن ان الله تعالى وصفه بأنه بلسان عربى مبين وكرر ذلك فى مواضع كثيرة وبين انه رفعه عن ان يجعله أعجميا فلو كان يمكن فى لسان العجم ايراد مثل فصاحته لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة وانه وان كان يمكن ان يكون من فائدة قوله انه عربى مبين انه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه الى الرجوع الى غيرهم ولا يحتاجون فى تفسيره الى من سواهم فلا يمتنع ان يفيد ماقلنا أيضا كما أفاد بظاهره ماقدمناه ويبين ذلك ان كثيرا من المسلمين قد عرفوا تلك الالسنة وهم من أهل البراعة فيها وفى العربية فقد وقفوا على انه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة مايقع فى العربية * ومعنى آخر وهو انا لم نجد أهل التوراة والانجيل ادعوا الاعجاز لكتابهم ولا ادعى لهم المسلمون فعلم ان الاعجاز مما يختص به القرآن ويبين هذا ان الشعر لا يتأتى فى تلك الالسنة على ماقد اتفق فى العربية وان كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها من البديع مايمكن ويتأتى فى العربية وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع

Digitized by Google

الوجوه التي يتبين فيها الفصاحة على مايتأتى فى العربية فان قيل فان المجوس تزعم ان كتاب زرادشت وكتاب مانى معجزان قيل الذى يتضمنه كتاب مانى من طريق النيرنجات وضروب من الشعوذة ليس يقع فيها اعجاز و يزعمون ان فى الكتاب الحكم وهى حكم منقولة متداولة على الالسن لايختص بها أمة دون أمة وان كان بعضهم أكثر اهتماما بها وتحصيلا لها وجمعا لابوابها وقد ادعى قوم ان ابن المقفع عارض القرآن وانما فزعوا الى الدرة اليتيمة وهما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل فليس فيها شئ بديع من لفظ ولامعنى والآخر فى شئ من الديانات وقد تهوس فيه بما لايخفى على متأمل وكتابه الذى بيناه فى الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة فأى صنع له فى ذلك وأى فضيلة حازها فيما جاء به وبعد فليس يوجد له كتاب يدعى مدع انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ماجمع واستحيا لنفسه من اظهاره فان كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد ولايمتنع ان يشتبه عليه الحال فى الابتداء ثم يلوح له رشده ويتبين له أمره وينكشف له عجزه ولو كان بقى على اشتباه الحال عليه لم يخف علينا موضع غفلته ولم يشتبه لدينا وجه شبهته ومتى أمكن ان تدعى الفرس فى شئ من كتبهم انه معجز فى حسن تأليفه وعجيب نظمه

﴿ فصل فى جملة وجوه اعجاز القرآن ﴾

ذكر اصحابنا وغيرهم فى ذلك ثلاثة اوجه من الاعجاز ● أحدها يتضمن الاخبار عن الغيوب وذلك مما لايقدر عليه البشر ولاسبيل لهم اليه فمن ذلك ماوعد الله تعالى نبيه عليه السلام انه سيظهر دينه على الاديان بقوله عزوجل هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ففعل ذلك وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه اذا أغزى جيوشه عرفهم ماوعدهم الله من اظهار دينه ليثقوا بالنصر و يستيقنوا بالنجح وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يفعل كذلك فى أيامه حتى وقف أصحاب جيوشه عليه فكان سعد بن أبى وقاص رحمه الله وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لاصحابه و يحرضهم به و يوثق لهم وكانوا يلقون الظفر فى موجهاتهم حتى فتح الى آخر أيام عمر رضى الله عنه الى بلخ و بلاد الهند وفتح فى أيامه مرو الشاهجان ومرو الروذ ومنعهم من العبور بجيحون وكذلك فتح فى أيامه فارس الى اصطخر وكرمان ومكران وسجستان وجميع ما كان من مملكة كسرى وكل ما كان يملكه ملوك الفرس بين البحرين من الفرات الى جيحون وأزال ملك

ملوك الفرس فلم يعد الى اليوم ولا يعود أبدا ان شاء الله تعالى ثم الى حدود أرمينية والى باب الابواب وفتح أيضا ناحية الشام والاردن وفلسطين وفسطاط مصر وأزال ملك قيصر عنها وذلك من الفرات الى بحر مصر وهو ملك قيصر وغزت الخيول فى أيامه الى عمورية فأخذ الضواحى كلها ولم يبق دونها الا ما حجز دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة وقال الله عز وجل قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد فصدق فيه وقال فى أهل بدر واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم ووفى لهم بما وعد وجميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الاخبار عن الغيوب يكثر جدا وانما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل ● والوجه الثانى انه كان معلوما من حال النبى صلى الله عليه وسلم انه كان أميا لا يكتب ولا يحسن ان يقرأ وكذلك كان معروفا من حاله انه لم يكن يعرف شيأ من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الامور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه فذكر فى الكتاب الذى جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه وما صار اليه أمره من الخروج من الجنة ثم جلا من أمر ولده وأحواله وتوبته ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى اليه أمره وكذلك أمر ابراهيم عليه السلام الى ذكر سائر الانبياء المذكورين فى القرآن والملوك والفراعنة الذين كانوا فى أيام الانبياء صلوات الله عليهم ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن تعلم واذا كان معروفا انه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الاخبار ولا متردد الى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحى ولذلك قال عز وجل وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون وقال وكذلك نفصل الآيات وليقولوا درست وقد بينا ان من كان يختلف الى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل صنعة لم يخف على الناس أمره ولم يختلف عندهم مذهبه وقد كان يعرف فيهم من يحسن هذا العلم وان كان نادرا وكذلك كان يعرف من يختلف اليه للتعليم وليس يخفى فى العرف عالم كل صنعة ومتعلمها فلو كان منهم لم يخف أمره ● والوجه الثالث انه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التى أطلقوها فالذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للاعجاز وجوه منها ما يرجع الى الجملة وذلك ان نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم

ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم الى معدل موزون غير مسجع ثم الى مايرسل ارسالا فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وان لم يكن معتدلا فى وزنه وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لايتعمل ولايتصنع له وقد علمنا ان القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شئ منه وكذلك ليس من قبيل الشعر لان من الناس من زعم أنه كلام مسجع ومنهم من يدعى ان فيه شعرا كثيرا والكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع فهذا اذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة وأنه معجز وهذه خصوصية ترجع الى جملة القرآن وتميز حاصل فى جميعه ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر وانما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها مانبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها مانكشفه من الاختلاف ويقع فيها مانبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا فى الفصاحة على ماوصفه الله تعالى به فقال عز من قائل الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فأخبر أن كلام الآدمى ان امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال وهذا المعنى هو غير المعنى الاول الذى بدأنا بذكره فتأمله تعرف الفضل وفى ذلك معنى ثالث وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لايتفاوت ولا يتباين على مايتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وانذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين ومنهم من يجود فى التأبين دون التقريظ ومنهم من يغرب فى وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف

الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وبزهير اذا رغب ومثل ذلك يختلف فى الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الاحوال التى يتصرف فيها فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى فاذا جاء الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لانه لا خلاف فى تقدمهم فى صنعة الشعر ولا شك فى تبريزهم فى مذهب النظم فاذا كان الاختلال بينا فى شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه واستغنينا عن ذكر من هو دونهم وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا فى الخطب والرسائل ونحوها ثم نجد فى الشعراء من يجود فى الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله ومن الناس من يجود فى الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا عجيبا ومنهم من يوجد بضد ذلك وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا اسفال فيه الى الرتبة الدنيا وكذلك قد تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الاعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة فعلمنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر لان الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الاسباب التى يتضمن ●

ومعنى رابع وهو ان كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا فى الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ألا ترى ان كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه حتى ان أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جودة نظمه وحسن وصفه فى الخروج من النسيب الى المديح وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتى فيه بشئ وانما اتفق له فى مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شئ الى شئ والتحول من باب الى باب ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على أن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر فى الافراد الى حد الآحاد وهذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج

به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف * ومعنى خامس وهو أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الانس والجن فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا وقد قال الله عز وجل قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فان قيل هذه دعوى منكم وذلك أنه لا سبيل لنا الى أن نعلم عجز الجن عن مثله وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الاتيان بمثله وان كنا عاجزين كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة وأسباب غامضة دقيقة لا نقدر نحن عليها ولا سبيل لنا للطفها اليها واذا كان كذلك لم يكن الى علم ما ادعيتم سبيل قيل قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل وقد يمكن أن يقال ان هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن وما يروون لهم من الشعر ويحكون عنهم من الكلام وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم والقدر الذي نقلوه قد تأملناه فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الانس ولعله يقصر عنها ولا يمتنع ان يسمع الناس كلامهم ويقع بينهم وبينهم محاورات في عهد الانبياء صلوات الله عليهم وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات على أن القوم الى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان ولهم أشعار محفوظة مروية في دواوينهم قال تأبط شرا

وأدهم قد حبت جلبابه * كما احتابت الكاعب الخيعلا
الى ان حدا الصبح اثناءه * ومزق جلبابه الاليلا
على شيم نار تنورتها * فبت لها مدبرا مقبلا
فأصبحت والغول لي جارة * فيا جارتا أنت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت * بوجه تهول واستغولا
فمن سال أين ثوت جارتي * فان لها باللوى منزلا
وكنت اذا ما هممت اعتزمت * وأحراذا قمت أن أفعلا

(وقال آخر) عشوا ناري فقلت منون أنتم * فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
فقمت الى الطعام فقال منهم * زعيم يحسد الانس الطعاما

ويذكرون لامرئ القيس قصيدة مع عمرو الجني وأشعارا لهما كرهنا ذكرها لطولها وقال عبيد بن أيوب

فلله در الغول أي رفيقة * لصاحب قفر خائف متقفر
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت * حوالي نيرانا تبوخ وتزهر

وقال ذو الرمة بعد قوله

قد أعسف النازح المجهول معسفه * فى ظل أخضر يدعو هامة البوم
للجن بالليل فى حافاتها زجل * كما تناوح يوم الريح عيشوم
دوية ودجا ليل كانهما * يم تراطن فى حافاته الروم

(وقال أيضا)

وكم عرست بعد النوى من معرس * لها من كلام الجن أصوات سامر

(وقال) ورمل عزيف الجن فى عقباته * هزيز كتضراب المغنين بالطبل

واذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم ويحكون عنهم وذلك القدر الحكى لا يزيد أمره على فصاحة العرب صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه كعجز الانس و يبين ذلك من القرآن ان الله تعالى حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين الى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه فاذا ثبت انه وصف كلامهم ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم صح ان يوصف الشئ المألوف بأنه يحط عن درجة القرآن فى الفصاحة وهذان الجوابان أسد عندى من جواب بعض المتكلمين عنه بأن عجز الانس عن القرآن يثبت له حكم الاعجاز فلا يعتبر غيره ألا ترى انه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه فقال لنا قائل فدلوا على ان الملائكة تعجز عن الاتيان بمثله لم يكن لنا فى الجواب غير هذه الطريقة التى قد بيناها وانما ضعفنا هذا الجواب لان الذى حكى وذكر عجز الجن والانس عن الاتيان بمثله فيجب ان نعلم عجز الجن عنه كما علمنا عجز الانس عنه ولو كان وصف عجز الملائكة عنه لوجب ان نعرف ذلك أيضا بطريقه فان قيل أنتم قد انتهيتم الى ذكر الاعجاز فى التفاصيل وهذا الفصل انما يدل على الاعجاز فى الجملة قيل هذا كما انه يدل على الجملة فانه يدل على التفصيل أيضا فصح ان يلحق هذا القبيل كما كان يصح ان يلحق بباب الجمل * ومعنى سادس وهو ان الذى ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق ونحو ذلك من الوجوه التى توجد فى كلامهم موجود فى القرآن وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم فى الفصاحة والابداع والبلاغة وقد ضمنا بيان ذلك بعد لان الوجه ههنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل * ومعنى سابع وهو ان المعانى التى تتضمن فى أصل وضع الشريعة والاحكام والاحتجاجات فى أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الالفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا فى اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمنع ذلك انه قد علم ان تخير الالفاظ للمعانى المتداولة المألوفة والاسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الالفاظ لمعان

مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة فلو أبرع اللفظ فى المعنى البارع كان ألطف وأعجب من ان يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر والامر المتقرر المتصور ثم ان انضاف الى ذلك التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد مايبتدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بان التفاضل فى البراعة والفصاحة ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعنى والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر فالبراعة أظهر والفصاحة أتم * ومعنى ثامن وهو ان الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام أو تقذف مابين شعر فتأخذه الاسماع وتتشوف اليه النفوس ويرى وجه رونقه باديا غامرا سائر مايقرن به كالدرة التى ترى فى سلك من خرز وكالياقوتة فى واسطة العقد وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير وهى غرة جميعه وواسطة عقده والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه فى جنسه ومائه وهذا الفصل أيضا مما يحتاج فيه الى تفصيل وشرح ونص ليتحقق ماادعيناه منه ولولا هذه الوجوه التى بيناها لم يتحير فيه أهل الفصاحة ولكانوا يفزعون الى التعمل للمقابلة والتصنع للمعارضة وكانوا ينظرون فى أمرهم ويراجعون أنفسهم أو كان يراجع بعضهم بعضا فى معارضته ويتوقفون لها فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك علم ان أهل المعرفة منهم بالصنعة انما عدلوا عن هذه الامور لعلمهم بعجزهم عنه وقصور فصاحتهم دونه ولا يمتنع ان يلتبس على من لم يكن بارعا فيهم ولا متقدما فى الفصاحة منهم هذه الحال حتى لا يعلم الا بعد نظر وتأمل وحتى يعرف حال عجز غيره الا انا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا ولم يشتغلوا بذلك تحققا بظهور العجز وتبيناله وأما قوله تعالى حكاية عنهم قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا فقد يمكن ان يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم وقد يمكن ان يكون هذا الكلام انما خرج منهم وهو يدل على عجزهم ولذلك أورده الله مورد تقريعهم لانه لو كانوا على ماوصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد الى الانجاز والضمان الى الوفاء فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدى وتطاول زمان الفسحة فى اقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه علم عجزهم اذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط ومعلوم من حالهم وحميتهم ان الواحد منهم يقول فى الحشرات والهوام والحيات وفى وصف الازمة والاتساع والامور التى لا يؤبه لها ولا يحتاج اليها ويتنافسون فى ذلك أشد التنافس ويتبجحون به أشد التبجح فكيف يجوز ان تمكنهم معارضته فى هذه المعانى الفسيحة والعبارات الفصيحة مع تضمن المعارضة تكذيبه والذب عن أديانهم القديمة واخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم وتضليله اياهم والتخلص من منازعته ثم من محاربته ومقارعته ثم لا يفعلون شيأ من ذلك وانما

يحيلون أنفسهم على التعاليل ويعللونها بالاباطيل * ومعنى تاسع وهو ان الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة وجملة ماذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بها كلامهم والذى ينقسم اليه هذه الحروف على ماقسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسام نحن ذاكروها * فمن ذلك انهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهورة فالمهموسة منها عشرة وهى الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفاء والتاء والصاد والسين وماسوى ذلك من الحروف فهى مجهورة وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة فى جملة الحروف المذكورة فى أوائل السور وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لازيادة ولانقصان والمجهور معناه أنه حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت والمهموس كل حرف ضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى معه النفس وذلك مما يحتاج الى معرفته لتبتنى عليه أصول العربية وكذلك مما يقسمون اليه الحروف يقولون انها على ضربين أحدهما حروف الحلق وهى ستة أحرف العين والحاء والهمزة والهاء والخاء والغين والنصف من هذه الحروف مذكور فى جملة الحروف التى تشتمل عليها الحروف المبنية فى أوائل السور وكذلك النصف من الحروف التى ليست بحروف الحلق وكذلك تنقسم هذه الحروف الى قسمين آخرين أحدهما حروف غير شديدة والى الحروف الشديدة وهى التى تمنع الصوت أن يجرى فيه وهى الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والذال والظاء والباء وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضا هى مذكورة فى جملة تلك الحروف التى بنى عليها تلك السور ومن ذلك الحروف المطبقة وهى أربعة أحرف وماسواها منفتحة فالمطبقة الطاء والظاء والضاد والصاد وقد علمنا أن نصف هذه فى جملة الحروف المبدوء بها فى أوائل السور واذا كان القوم الذين قسموا فى الحروف هذه الاقسام لاغراض لهم فى ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبى صلى الله عليه وسلم ورأوا مبانى اللسان على هذه الجهة وقد نبه بماذكر فى أوائل السور على مالم يذكر على حد التنصيف الذى وصفنا دل على أن وقوعها الموقع الذى يقع التواضع عليه بعد العهد الطويل لايجوز أن يقع الا من الله عز وجل لان ذلك يجرى مجرى علم الغيوب وان كان انما نبهوا على مابنى عليه اللسان فى أصله ولم يكن لهم فى التقسيم شئ وانما التأثير لمن وضع أصل اللسان فذلك أيضا من البديع

Digitized by Google

الذى يدل على ان أصل وضعه وقع موقع الحكمة التى يقصر عنها اللسان فان كان أصل اللغة توقيفا فالامر فى ذلك أبين وان كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضا لانه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا الا بأمر من عند الله تعالى وكل ذلك يوجب اثبات الحكمة فى ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الاعجاز من وجه وقد يمكن ان تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها فى النظم اذا كانت حروفا كنحو الم لان الالف المبدوء بها هى أقصاها مطلعا واللام متوسطة والميم منطرفة لانها تأخذ فى الشفة فنبه بذكرها على غيرها من الحروف وبين انه انما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التى تردد بين هذين الطرفين ويشبه أن يكون التنصيف وقع فى هذه الحروف دون الالف لان الالف قد تلغى وقد تقع الهمزة وهى موقعا واحدا * ومعنى عاشر وهو انه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشى المستكره والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريبا الى الافهام يبادر معناه لفظه الى القلب ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه فى نفسه ولا موهم مع دنوه فى موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبتذل والقول المسفسف فليس يصح ان تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمنع أو يوضع فيه الاعجاز ولكن لو وضع فى وحشى مستكره أو غمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف لكان لقائل ان يقول فيه ويعتذر ويعيب ويقرع ولكنه أوضح مناره وقرب منهاجه وسهل سبيله وجعله فى ذلك متشابها متماثلا وبين مع ذلك اعجازهم فيه وقد علمت ان كلام فصحائهم وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف فى غريب مستنكر أو وحشى مستكره ومعان مستبعدة ثم عدولهم الى كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونه فى الرتبة ثم تحولهم الى كلام معتدل بين الامرين متصرف بين المنزلتين فمن شاء ان يتحقق هذا نظر فى قصيدة امرئ القيس * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما يتصرف اليه هذه القصيدة ونظائرها ومنزلتها من البلاغة ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها على وجه يؤخذ باليد ويتناول من كثب ويتصور فى النفس كتصور الاشكال ليبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن واعلم ان من قال من أصحابنا ان الاحكام معللة بعلل موافقة مقتضى العقل جعل هذا وجها من وجوه الاعجاز وجعل هذه الطريقة دلالة فيه كنحو ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها ولهم فى كثير من تلك العلل طرق قريبة ووجوه تستحسن وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك ولكن الاصل الذى يبنون عليه عندنا غير مستقيم وفى ذلك كلام يأتى فى كتابنا فى الاصول وقد يمكن فى

تفاصيل ما أوردنا من المعانى الزيادة والافرادفانا جمعنا بين أمور وذكرنا المزية المتعلقة بها وكل واحد من تلك الامور مما قد يمكن اعتماده فى اظهار الاعجاز فيه فان قيل فهل تزعمون انه معجز لانه حكاية لكلام القديم سبحانه أولانه عبارة عنه أولانه قديم فى نفسه قيل لسنا نقول بأن الحروف قديمة فكيف يصح التركيب على الفاسد ولا نقول أيضا ان وجه الاعجاز فى نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم لانه لو كان كذلك لكانت التوراة والانجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات فى النظم والتأليف وقد بينا أن اعجازها فى غير ذلك وكذلك كان يجب ان تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومتفردها وقد ثبت خلاف ذلك

﴿ فصل فى شرح ما بينا من وجوه اعجاز القرآن ﴾

فأما الفصل الذى بدأنا بذكره من الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة فى ذلك كله فهو كقوله تعالى قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فأغزاهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما الى قتال العرب والفرس والروم وكقوله الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين وراهن أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى ذلك وصدق الله وعده وكقوله فى قصة أهل بدر سيهزم الجمع ويولون الدبر وكقوله لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون وكقوله واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم فى قصة أهل بدر وكقوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وصدق الله تعالى وعده فى كل ذلك وقال فى قصة المخلفين عنه فى غزوته لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا فحق ذلك كله وصدق ولم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد وكقوله ليظهره على الدين كله وكقوله قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين فامتنعوا من المباهلة ولو أجابوا اليها اضطرمت عليهم الاودية نارا على ما ذكر فى الخبر وكقوله قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ولو تمنوه لوقع بهم فهذا وما أشبهه فصل • وأما الوجه الثانى الذى ذكرناه من اخباره عن قصص الاولين وسير المتقدمين فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الاخبار ولم يشتغل بدرس الآثار وقد حكى فى القرآن تلك الامور حكاية

Digitized by Google

من شهدها وحضرها ولذلك قال الله تعالى وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون وقال وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين وقال وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك فبين وجه دلالته من اخباره بهذه الامور الغائبة السالفة وقال تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا الآية فأما الكلام في الوجه الثالث وهو الذي بيناه من الاعجاز الواقع في النظم والتأليف والوصف فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوها منها اناقلنا انه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ومباين لاساليب خطابهم ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من ان يصحح انه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى لان قوما من كفار قريش ادعوا انه شعر ومن الملحدة من يزعم ان فيه شعرا ومن أهل الملة من يقول انه كلام مسجع الا انه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ومنهم من يدعي انه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب

فصل في نفي الشعر من القرآن

قد علمنا ان الله تعالى نفى الشعر من القرآن ومن النبي صلى الله عليه وسلم فقال وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقال في ذم الشعراء والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم في كل واد يهيمون الى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات فقال وما هو بقول شاعر وهذا يدل على ان ما حكاه عن الكفار من قولهم انه شاعر وان هذا شعر لابد من ان يكون محمولا على انهم نسبوه في القرآن الى ان الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الاعاريض المحصورة المألوفة أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم اياهم بالشعر لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق وان كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة أو يكون محمولا على انه أطلق من بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر وهذا أبعد الاحتمالات فان حمل على الوجهين الاولين كان ما أطلقوه صحيحا وذلك ان الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره واذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه في رأيهم وعندهم أقدر فنسبوه الى ذلك لهذا السبب فان زعم زاعم انه قد وجد في القرآن شعرا كثيرا فمن ذلك ما يزعمون انه بيت تام أو أبيات تامة ومنه ما يزعمون انه مصراع كقول القائل

قد قلت لما حاولوا سلوتي ★ هيهات هيهات لما توعدون

ومما يزعمون انه بيت قوله

وجفان كالجواب * وقدور راسيات

قالوا هو من الرمل من البحر الذى قيل فيه

ساكن الريح نطو * فى المزن منحل العزالى

وكقوله من تزكى فانما * يتزكى لنفسه

كقول الشاعر من بحر الخفيف

كل يوم بشمسه * وغد مثل أمسه

وكقوله عز وجل

ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب

قالوا هو من المتقارب وكقوله

ودانية عليهم ظلالها * وذللت قطوفها تذليلا

ويشبعون حركة الميم فيزعمون انه من الرجز وذكر عن أبى نواس انه ضمن ذلك شعرا وهو قوله

وفتية فى مجلس وجوههم * ريحانهم قد عدموا التثقيلا

دانية عليهم ظلالها * وذللت قطوفها تذليلا

وقوله عز وجل

ويخزهم وينصركم عليهم * ويشف صدور قوم مؤمنينا

زعموا انه من الوافر كقول الشاعر

لنا غنم نسوقها غزار * كأن قرون جلتها عصى

وكقوله عز وجل

أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم

ضمنه أبو نواس فى شعره ففصل وقال فذاك الذى وشعره

وقرا معلنا ليصدع قلبى * والهوى يصدع الفؤاد السقيما

أرأيت الذى يكذب بالدين فذاك الذى يدع اليتيما

وهذا من الخفيف كقول الشاعر

وفؤادى كعهده بسليمى * بهوى لم يحل ولم يتغير

وكما ضمنه فى شعره من قوله

سبحان من سخر هذا لنا * حقا وما كنا له مقرنين

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر وكما يقولونه فى قوله عز وجل والعاديات ضبحا فالموريات قدحا

ونحو ذلك فى القرآن كثير كقوله والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا وهو عندهم شعر من بحر البسيط والجواب عن هذه الدعوى التى ادعوها من وجوه ● أولها ان الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعرا ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم لبادروا الى معارضته لان الشعر مسخر لهم سهل عليهم لهم فيه ماقد علمت من التصرف العجيب والاقتدار اللطيف فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ولا عولوا عليه علم انهم لم يعتقدوا فيه شيأ مما يقدره الضعفاء فى الصنعة والمرمدون فى هذا الشأن وان استدرك من يجىء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة فى ذلك الزمان و بلغائهم وخطبائهم وزعمه انه قد ظفر بشعر فى القرآن ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم مع شدة حاجتهم الى الطعن فى القرآن والغض منه والتوصل الى تكذيبه بكل ماقدروا عليه فلن يجوز ان يخفى على أولئك وان يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق واذا كان كذلك علم ان الذى أجاب به العلماء عن هذا السؤال شديد وهو انهم قالوا ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا والى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الاسلام وقالوا أيضا ان ما كان على وزن بيتين الا انه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر ثم منهم من قال ان الرجز ليس بشعر أصلا لاسيما اذا كان مشطورا أو منهوكا وكذلك ما كان يقارنه فى قلة الاجزاء وعلى هذا يسقط السؤال ثم يقولون ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذى يتعمده ويسلك ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون مايستوى فيه العامى والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه ومايتفق من كل واحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر لانه لو صح ان يسمى كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر أو تنتظم انتظام بعض الاعاريض كان الناس كلهم شعراء لان كل متكلم لا ينفك من ان يعرض فى جملة كلام كثير يقوله ماقد يتزن بوزن الشعر وينتظم انتظامه ألا ترى ان العامى قد يقول لصاحبه أغلق الباب وائتنى بالطعام ويقول الرجل لاصحابه اكرموا من لقيتم من تميم ومتى تتبع الانسان هذا عرف انه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه وهذا القدر الذى يصح فيه التوارد ليس بعده أهل الصناعة سرقة اذ لم تعلم فيه حقيقة الاخذ كقول امرئ القيس

وقوفا بها صحبى على مطيهم ✶ يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وكقول طرفة وقوفا بها صحبى على مطيهم ✶ يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ومثل هذا كثير فاذا صح مثل ذلك فى بعض البيت ولم يمتنع التوارد فيه فكذلك لا يمتنع وقوعه فى الكلام المنثور اتفاقا غير مقصود اليه فاذا اتفق لم يكن ذلك شعرا وكذلك يمتنع

التوارد على بيتين وكذلك يمتنع فى الكلام المنثور وقوع البيتين ونحوهما فثبت بهذا ان ماوقع هذا الموقع لم يعد شعرا وانما يعد شعرا ماذا قصده صاحبه تأتى له ولم يمتنع عليه فاذا كان هو مع قصده لا يتأتى له وانما يعرض فى كلامه عن غير قصد اليه لم يصح ان يقال انه شعر ولا ان صاحبه شاعر ولا يصح ان يقال ان هذا يوجب ان مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب ان يكون شعرا لانه لو قصده لكان يتأتى منه وانما لم يصح ذلك لان ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعرا من أحد وما كان شعرا من أحد من الناس كان شعرا من كل أحد ألا ترى ان السوقى قد يقول اسقنى الماء ياغلام سريعا وقد يتفق ذلك من الساهى ومن لا يقصد النظم فأما الشعر اذا بلغ الحد الذى بينا فلا يصح ان يقع الا من قاصد اليه فأما الرجز فانه يعرض فى كلام العوام كثيرا فاذا كان بيتا واحدا فليس ذلك بشعر وقد قيل ان أقل مايكون منه شعرا أربعة أبيات بعد ان يتفق قوافيها ولم يتفق ذلك فى القرآن بحال فأما دون أربعة أبيات منه أو مايجرى مجراه فى قلة الكلمات فليس بشعر وما اتفق فى ذلك من القرآن مختلف الروى ويقولون انه متى اختلف الروى خرج من ان يكون شعرا وهذه الطرق التى سلكوها فى الجواب معتمدة أو أكثرها ولو كان ذلك شعرا لكانت النفوس تتشوف الى معارضته لان طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد وأهله يتقاربون فيه أو يضربون فيه بسهم فان قيل فى القرآن كلام موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى بل هو مزاوج متساوى الضروب وذلك آخر أقسام كلام العرب قيل من سبيل الموزون من كلام ان يتساوى أجزاؤه فى الطول والقصر والسواكن والحركات فان خرج عن ذلك لم يكن موزونا كقوله رب أخ كنت به مغتبطا أشد كفى بعرا محبته تمسكا منى بالود ولا أحسبه يزهد فى ذى أمل تمسكا منى بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا يحول عنه أبدا نخاب فيه أملى وقد علمنا ان هذا القرآن ليس من هذا القبيل بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح وربما كان عندهم مستنكرا بل أكثره على ذلك وكذلك ليس فى القرآن من الموزون الذى وصفناه أولا وهو الذى شرطنا فيه التعادل والتساوى فى الاجزاء غير الاختلاف الواقع فى التقفية ويبين ذلك ان القرآن خارج عن الوزن الذى بينا وتتم فائدته بالخروج منه وأما الكلام الموزون فان فائدته تتم بوزنه

فصل فى نفى السجع من القرآن

ذهب أصحابنا كلهم الى نفى السجع من القرآن وذكره أبو الحسن الاشعرى فى غير موضع

من كتبه وذهب كثير ممن يخالفهم الى اثبات السجع فى القرآن وزعموا ان ذلك مما يبين به فضل الكلام وانه من الاجناس التى يقع بها التفاضل فى البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على ان موسى أفضل من هرون عليهما السلام ولما كان السجع قيل فى موضع هرون وموسى ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل موسى وهرون قالوا هذا يفارق أمر الشعر لانه لا يجوز ان يقع فى الخطاب الا مقصودا اليه واذا وقع غير مقصود اليه كان دون القدر الذى يسمى شعرا وذلك القدر ما يتفق وجوده من المفحم كما يتفق وجوده من الشاعر وأما ما فى القرآن من السجع فهو كثير لا يصح ان يتفق كله غير مقصود اليه وبينون الامر فى ذلك على تحديد معنى السجع قال أهل اللغة هو موالاة الكلام على وزن واحد قال ابن دريد سجعت الحمامة معناها رددت صوتها وأنشد

طربت فأبكتك الحمام السواجع ❁ تميل بها صحوا غصون نوائع

النوائع الموائل من قولهم جائع نائع أى متمائل ضعفا وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم ان يقولوا شعر معجز وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب وينفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر لان الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال للذين جاؤه وكلموه فى شأن الجنين كيف ندى من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل أليس دمه قد بطل فقال أسجاعة كسجاعة الجاهلية وفى بعضها أسجعا كسجع الكهان فرأى ذلك مذموما لم يصح ان يكون فى دلالته والذى يقدرونه انه سجع فهو وهم لانه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا لان ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لان اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى وفصل بين ان ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت افادة السجع كافادة غيره ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى فان قيل فقد يتفق فى القرآن ما يكون من القبيلين جميعا فيجب ان تسموا أحدهما سجعا قيل الكلام فى تفصيل هذا خارج عن غرض كتابنا والا كنا أتى على فصل فصل من أول القرآن الى آخره ونبين فى الموضع الذى يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى ولكنه خارج عن غرض

كلامنا وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين ثم ان سلم لهم مسلم موضعا أو مواضع معدودة وزعم ان وقوع ذلك موقع الاستراحة فى الخطاب الى الفواصل لتحسين الكلام بها وهى الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام وزعم ان الوجه فى ذلك انه من باب الفواصل أو زعم ان ذلك وقع غير مقصود اليه وان ذلك اذا اعترض فى الخطاب لم يعد سجعا على ماقدمنا من القليل من الشعر كالبيت الواحد والمصراع والبيتين من الرجز ونحو ذلك يعرض فيه فلا يقال انه شعر لانه لا يقع مقصودا اليه وانما يقع مغمورا فى الخطاب فكذلك حال السجع الذى يزعمونه ويقدرونه ويقال لهم لو كان الذى فى القرآن على ماتقدرونه سجعا لكان مذموما مرذولا لان السجع اذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونسب الى الخروج عن الفصاحة كما ان الشاعر اذا خرج عن الوزن المعهود كان مخططا وكان شعره مرذولا وربما أخرجه عن كونه شعرا وقد علمنا ان بعض مايدعونه سجعا متقارب الفواصل متدانى المقاطع وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الاول بعد كلام كثير وهذا فى السجع غير مرضى ولا محمود فان قيل متى خرج السجع المعتدل الى نحو ماذكرتموه خرج من ان يكون سجعا وليس على المتكلم ان يلتزم ان يكون كلامه كله سجعا بل يأتى به طورا ثم يعدل عنه الى غيره ثم قد يرجع اليه قيل متى وقع أحد مصراعى البيت مخالفا للآخر كان تخليطا وخبطا وكذلك متى اضطرب احد مصراعى الكلام المسجع وتفاوت كان خبطا وعلم ان فصاحة القرآن غير مذمومة فى الاصل فلا يجوز ان يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب ولو كان الكلام الذى هو فى صورة السجع منه لما تحيروا فيه وكانت الطباع تدعو الى المعارضة لان السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة وهو غير خارج عنها ولا مميز منها وقد يتفق فى الشعر كلام على منهاج السجع وليس بسجع عندهم وذلك نحو قول البحترى

تشكى الوجى والليل ملتبس الدجا * عزيزية الانساب مرت نقيعها

وقوله قريب المدى حتى يكون الى الندى * عدو البنا حتى يكون معالى

ورأيت بعضهم يرتكب هذا فيزعم انه سجع مداخل ونظيره من القرآن قوله تعالى ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم وقوله أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وقوله أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله وقوله التوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل وقوله انى وهن العظم منى ولو كان ذلك عندهم سجعا لم يتحيروا فيه ذلك التحير حتى سماه بعضهم سحرا وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ويصرفونه اليه ويتوهمونه فيه

Digitized by Google

وهم فى الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه وليس القوم بعاجزين عن تلك الاساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم والذى تكلمنا به فى هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل ونحن نذكر بعد هذا فى التفصيل مايكشف عن مباينة ذلك وجوه السجع ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبى طالب لسيف بن ذى يزن أنبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه ونبت زرعه فى أكرم موطن وأطيب معدن ومايجرى هذا المجرى من الكلام والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم ولا معنى لقولهم ان ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد وروى غير مختلف لان ماجرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده ولو بنى عليه لكان الشعر سجعا لان رويه يتفق ولا يختلف وتتردد القوافى على طريقة واحدة وأما الامور التى يستريح اليها الكلام فانها تختلف فربما كان ذلك يسمى قافية وذلك انما يكون فى الشعر وربما كان ماينفصل عنده الكلام ان يسمى مقاطع السجع وربما سمى ذلك فواصل وفواصل القرآن مما هو مختص بها لاشركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب وأما ماذكروه من تقديم موسى على هرون عليهما السلام فى موضع وتأخيره عنه فى موضع لكان السجع ولتساوى مقاطع الكلام فليس بصحيح لان الفائدة عندنا غير ماذكروه وهى ان اعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الامر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة وتتبين فيه البلاغة وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ونبهوا بذلك على عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأ به ومكررا ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدى تلك المعانى وتحويها وجعلوها بازاء ماجاء به وتوصلوا بذلك الى تكذيبه والى مساواته فيما جاء به كيف وقد قال لهم فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها اظهار الاعجاز على الطريقين جميعا دون التسجيع الذى توهموه فان قال قائل القرآن مختلط من أوزان كلام العرب ففيه من جنس خطبهم ورسائلهم وسجعهم وموزون كلامهم الذى هو غير مقفى ولكنه أبدع فيه ضربا من الابداع لبراعته وفصاحته قيل قد علمنا ان كلامهم ينقسم الى نظم ونثر وكلام مقفى غير موزون ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع ونظم مقفى موزون له روى ومن هذه الاقسام ماهو سجية الاغلب من الناس فتناوله أقرب وسلوكه لايتعذر ومنه ماهو أصعب تناولا كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين وكل هذه الوجوه لاتخرج عن ان يقع لهم بأحد أمرين اما بتعمل أو بتكلف وتعلم وتصنع أو باتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة اليه ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من

الطبائع لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم و يتعرض على ألسنتهم وتجيش به خواطرهم ولا ينصرف عند الكل مع شدة الدواعي اليه ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه فالمهلة لهم فسيحة والامد واسع وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم فقد قيل انه اتفق في الاصل غير مقصود اليه على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ثم لما استحسنوه واستطابوه و رأوا انه تألفه الاسماع وتقبله النفوس تتبعوه من بعد وتمملوه وحكى لي بعضهم عن أبي عمرو غلام ثعلب عن ثعلب ان العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن * فعانبك من ذكرى حبيب ومنزل * ويسمون ذلك الوضع الميتر واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله وأما ما وقع السبق اليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أولا وقد يحتمل على قول من قال بأن اللغة اصطلاح انهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم وقد يمكن ان يقال مثله على المذهب الآخر وانهم وقفوا على ما يتصرف اليه القول من وجوه التفاصح أو توافقوا هم بينهم على ذلك و يمكن ان يقال ان التواضع وقع على أصل الباب وكذلك التوقيف ولم يقع على فنون تصرف الخطاب وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد و بنوا عليه وطلبوه و رتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها وتهش النفوس اليها وجمع دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها واختيار طرق من تنزيلها وعرفهم محاسن الكلام ودلهم على كل طريقة عجيبة ثم أعلمهم عجزهم عن الاتيان بالقرآن والقدر الذي يتناهى اليه قدرهم هو ما لم يخرج عن لغتهم ولم يشذ من جميع كلامهم بل قد عرض في خطابهم و وجدوا ان هذا انما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة اليه مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه دل على انه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة ولولا ذلك لكان القوم اذا اهتدوا في الابتداء الى وضع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه فلان يقدروا بعد التنبيه على وجهه والتحدي اليه أولى ان يبادروا اليه لو كان لهم اليه سبيل فلو كان الامر على ما ذكره السائل لوجب أن لا يتحيروا في أمرهم ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم ولكانوا يسرعون الى الجواب ويبادرون الى المعارضة ومعلوم من حالهم ان الواحد منهم يقصد الى الامور البعيدة عن الوهم والاسباب التي لا يحتاج اليها فيكثر فيها من شعر ورجز ونجد من يعينه على نقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الابل ونتاجها وكثير من أمرها لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا ثم كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة والفصاحة والدراية

ويتنافرون فيه وتجرى بينهم فيه الاسباب المنقولة فى الآثار على مالا يخفى على أهله فاستدللنا بتحيرهم فى أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ووقوعه موقعا يخرق العادات وهذه سبيل المعجزات فبان بما قلنا ان الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبة موقع النظائر التى تقع فى الاسجاع لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها فى باب السجع وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء فكان بعض مصاريعه كلمتين وبعضها تبلغ كلمات ولا يرون فى ذلك فصاحة بل يرونه عجزا فلو رأوا ان ما تلى عليهم من القرآن سجعا لقالوا نحن نعارضه بسجع معتدل فنزيد فى الفصاحة على طريقة القرآن ونتجاوزه فى البراعة والحسن ولا معنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه لان ما تخلل بين الامرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدروه من التسجيع لانه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته ولا بد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من ان يسلم ما ذهب اليه النظام وعباد بن سلمان وهشام القرظى ويذهب مذهبهم فى انه ليس فى نظم القرآن وتأليفه اعجاز وانه يمكن معارضته وانما صرفوا عنه ضربا من الصرف ويتضمن كلامه تسليم الخبط فى طريقة النظم وانه منتظم من فرق شتى ومن أنواع مختلفة ينقسم اليها خطابهم ولا يخرج عنها ويستهين ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذى وقع التحدى اليه وكيف يعجزهم الخروج عن السجع والرجوع اليه وقد علمنا عادتهم فى خطبهم وكلامهم انهم كانوا لا يلزمون أبدا طريقة السجع والوزن بل كانوا يتصرفون فى أنواع مختلفة فاذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمى الكلامين

فصل فى ذكر البديع من الكلام

ان سأل سائل فقال هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع قيل ذكر أهل الصنعة ومن صنف فى هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر مبين مقرر وباب مصور ذكروا ان من البديع فى القرآن قوله عز ذكره واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقوله وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم وقوله واشتعل الرأس شيبا وقوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون وقوله أو يأتيهم عذاب يوم عقيم وقوله نور على نور وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكمية كقوله ولكم فى القصاص حياة وفى الالفاظ الفصيحة كقوله فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا وفى الالفاظ الالهية كقوله وله كل شئ وقوله وما بكم من نعمة فمن الله وقوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ويذكرون من البديع من قول النبى صلى الله عليه وسلم

خير الناس رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها وقوله ربنا تقبل توبتى واغسل حوبتى وقوله غلب عليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء وهى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر وكقوله الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة وكقوله وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الا حصائد ألسنتهم وكقوله ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم وكقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه وقوله لخالد بن الوليد احرص على الموت توهب لك الحياة وقوله فر من الشرف يتبعك الشرف وكقول على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه فى كتابه الى ابن عباس وهو عامله على البصرة أرغب راغبهم واحلل عقدة الخوف عنهم وقوله حين سئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم انما قال ذلك والدين فى قلة فأما وقد اتسع نطاق الاسلام فكل امرئ وما اختار وسأل على رضى الله عنه بعض كبراء فارس عن أحد ملوكهم عندهم فقال لا زدشير فضيلة السبق غير ان أحدهم أنوشروان قال فأى أخلاقه كان أغلب عليه قال الحلم والاناة فقال على رضى الله عنه هما توأمان ينتجهما علو الهمة وقال قيمة كل امرئ ما يحسن وقال العلم قفل ومفتاحه المسئلة وكتب خالد بن الوليد الى مرازبة فارس أما بعد فالحمد لله الذى فض خدمتكم وفرق كلمتكم والخدمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلاخيل خدام وقال الحجاج دلونى على رجل سمين الامانة ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسبى على الخوارج أرادوه على الكلام فقال لا خير فى الرأى الفطير وقال دعوا الرأى يغب وقال اعرابى فى شكر نعمة ذاك عنوان نعمة الله عز وجل ووصف اعرابى قوما فقال اذا اصطفوا سفرت بينهم السهام واذا تصالحوا بالسيوف قعد الحمام وسئل اعرابى عن رجل فقال صفرت عباب الود بينى وبينه بعد امتلائها واكفهرت وجوه كانت بمائها وقال آخر من ركب ظهر الباطل نزل دار الندامة وقيل لرؤبة كيف خلفت ما وراءك فقال التراب يابس والمال عابس ومن البديع فى الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على ما بعدها فمن ذلك قول امرئ القيس

وقد اغتدى والطير فى وكناتها * بمنجرد قيد الاوابد هيكل

قوله قيد الاوابد عندهم من البديع ومن الاستعارة ويرونه من الالفاظ الشريفة ويعنى بذلك انه اذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيدا لها وكانت بحالة المقيد من جهة سرعة احضاره واقتدى به الناس واتبعه الشعراء فقيل قيد النواظر وقيد الالحاظ وقيد الكلام وقيد الحديث وقيد الرهان وقال الاسود بن يعفر

بمقلص عنز جهير شده * قيد الاوابد والرهان جواد

وقال أبو تمام لها منظر قيد الاوابد لم يزل * يروح ويغدو في خفارته الحب
وقال آخر ألحاظه قيد عيون الورى فليس طرف يتعداه
وقال آخر * قيد الحسن عليه الحدقا *

وذكر الاصمعي وأبو عبيدة وحماد وقبلهم أبو عمرو أنه أحسن في هذه اللفظة وانه اتبع فيها فلم يلحق وذكروه في باب الاستعارة البليغة وسماها بعض أهل الصنعة باسم آخر وجعلوها من باب الارداف وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف قالوا ومثله قوله * نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل * وانما أراد ترفها بقوله نؤم الضحى ومن هذا الباب قول الشاعر

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل * أبوها واما عبد شمس وهاشم

وانما أراد أن يصف طول جيدها فأتى بردفه ومن ذلك قول امرئ القيس * وليل كموج البحر أرخى سدوله * وذلك من الاستعارة المليحة و يجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن واشتعل الرأس شيبا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ومما يعتدونه من البديع التشبيه الحسن كقول امرئ القيس

كأن عيون الوحش حول خبائنا * وأرجلنا الجزع الذي لم يثقب

وقوله كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالي

واستبدعوا تشبيه شيئين بشيئين على حسن تقسيم ويزعمون ان أحسن ما وجد في هذا للمحدثين قول بشار

كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقد سبق امرؤ القيس الى صحة التقسيم في التشبيه ولم يتمكن بشار الا من تشبيه احدى الجملتين بالاخرى دون صحة التقسيم والتفصيل وكذلك عدوا من البديع قول امرئ القيس في أذني الفرس

وسامعتان يعرف العتق فيهما * كسامعتي مذعورة وسط ديرب

واتبعه طرفة فقال فيه

وسامعتان يعرف العتق فيهما * كسامعتي شاة بحومل مفرد

ومثله قول امرئ القيس في وصف الفرس

وعينان كالماويتين ومحجر * الى سند مثل الصفيح المنصب

وقال طرفة في وصف عيني ناقته

وعينان كالماويتين استكنتا * بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

ومن البديع فى التشبيه قول امرئ القيس

له ايطلا ظبى وساقا نعامة * وارخاء سرحان وتقريب تتفل

وذلك فى تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها ومن التشبيه الحسن فى القرآن قوله تعالى وله الجوارى المنشآت فى البحر كالاعلام وقوله تعالى كأنهن بيض مكنون ومواضع نذكرها بعد هذا ومن البديع فى الاستعارة قول امرئ القيس

وليل كموج البحر أرخى سدوله * على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف اعجازا وناء بكلكل

وهذه كلها استعارات أتى بها فى ذكر طول الليل ومن ذلك قول النابغة

وصدر أراح الليل عازب همه * تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فاستعاره من اراحة الراعى ابله الى مواضعها التى تأوى اليها بالليل وأخذ منه ابن الدمينة فقال

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى * ويجمعنى والهم والليل جامع

ومن ذلك قول زهير

صحا القلب عن ليلى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

ومن ذلك قول امرئ القيس

سموت اليها بعد ما نام أهلها * سمو حباب الماء حالا على حال

وأخذه أبو تمام فقال * سمو عباب الماء جاشت غواربه *

وانما أراد امرؤ القيس اخفاء شخصه ومن ذلك قوله * كأنى وأصحابى على قرن أعفرا *

يريد انهم غير مطمئنين ومن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله بن سعيد قال أخبرنى أبى قال أخبرنا عسل بن ذكوان أخبرنا أبو عثمان المازنى قال سمعت الاصمعى يقول أجمع أصحابنا انه لم يقل أحسن ولا أجمع من قول النابغة

فانك كالليل الذى هو مدركى * وان خلت ان المنتأى عنك واسع

قال الحسن بن عبد الله وأخبرنا محمد بن يحيى أخبرنا عون بن محمد الكندى أخبرنا قعنب بن محرز قال سمعت الاصمعى يقول سمعت أبا عمرو يقول كان زهير يمدح السوق ولو ضرب على أسفل قدميه مائتا دقل على ان يقول كقول النابغة

فانك كالليل الذى هو مدركى * وان خلت ان المنتأى عنك واسع

لما قال يريد ان سلطانه كالليل يصل الى كل مكان واتبعه الفرزدق فقال

ولو حملتنى الريح ثم طلبتنى * لكنت كشئ أدركتنى مقادره

فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ماسبق اليه النابغة ثم أخذه الاخطل فقال

وان أمير المؤمنين وفعله * لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد روى نحو هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب وجعل رزقي تحت ظل رمحي وليدخلن هذا الدين على مادخل عليه الليل وأخذه علي بن ٣ فقال

ومالامرئ حاولته عنك مهرب ● ولو كان في جوف السماء المطالع

بلى هارب لايهتدي لمكانه ● ظلام ولا ضوء من الصبح طالع

ومثله قول سلم الخاسر

فأنت كالدهر مبثوثا حبائله * والدهر لا ملجا منه ولا هرب

ولو ملكت عنان الريح أصرفه * في كل ناحية ما فاتك الطلب

فأخذه البحتري فقال

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن * بنجيهم عن خوف بأسك مهرب

ومن بديع الاستعارة قول زهير

فلما وردن الماء زرقا جمامه * وضعن عصي الحاضر المتخيم

وقول الاعشى

وان عناق العيس سوف يزوركم * ثناء على أعجازهن معلق

ومنه أخذ نصيب فقال

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

ومن ذلك قول تأبط شرا

فخالط سهل الارض لم يكدح الصفا * به كدحة والموت خزيان ينظر

ومن الاستعارة في القرآن كثير كقوله وانه لذكر لك ولقومك يريد ما يكون الذكر عنه شرفا * وقوله صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة قيل دين الله أراد وقوله اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ومن البديع عندهم الغلو كقول النمر بن تولب

أبقى الحوادث والايام من نمر * اسناد سيف قديم اثره بادي

تظل تحفر عنه ان ضربت به * بعد الذراعين والقيدين والهادي

وكقول النابغة

تقد السلوقي المضاعف نسجه * ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وكقول عنترة فازور من وقع القنا بلبانه * وشكا الي بعبرة وتحمحم

وكقول أبي تمام

Digitized by Google

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه * لخر يلثم منه موطئ القدم

وكقول البحترى

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما * فى وسعه لمشى اليك المنبر

ومن هذا الجنس فى القرآن يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد وقوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقوله تكاد تميز من الغيظ ومما يعدونه من البديع المماثلة وهو ضرب من الاستعارة وذلك ان يقصد الاشارة الى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذى قصد الاشارة اليه نظيره من المنثور ان يزيد بن الوليد بلغه ان مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته فكتب اليه أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيتهما شئت وكنحو ما كتب به الحجاج الى المهلب فان أنت فعلت ذلك والا أشرعت اليك الرمح فأجابه المهلب فان أشرع الامير الرمح قلبت اليه ظهر المجن وكقول زهير

ومن يعص أطراف الزجاج فانه ● يطيع العوالى ركبت كل لهذم

وكقول امرئ القيس

وما ذرفت عيناك الا لتضربى * بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وكقول عمرو بن معدى كرب

فلو ان قومى أنطقتنى رماحهم ● نطقت ولكن الرماح أجرت

وكقول القائل

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما ● دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وكقول الآخر

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة * أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

ومن هذا الباب فى القرآن كقوله فما أصبرهم على النار وكقوله وثيابك فطهر قال الاصمعى أراد البدن قال وتقول العرب فدا لك ثوبا ى يريد نفسه وأنشد

ألا أبلغ أبا حفص رسولا ● فدا لك من أخى ثقة ازارى

ويرون من البديع أيضا ما يسمونه المطابقة وأكثرهم على ان معناها ان يذكر الشئ وضده كالليل والنهار والسواد والبياض واليه ذهب الخليل بن أحمد والاصمعى ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان ونظيره من القرآن ولكم فى القصاص حياة وقوله يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى وقوله يولج الليل فى النهار ويولج

Digitized by Google

النهار فى الليل ومثله كثير جدا وكقول النبى صلى الله عليه وسلم للانصار انكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع وقال آخرون بل المطابقة ان يشترك معنيان بلفظة واحدة واليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب فمن ذلك قول الافوه الاودى

واقطع الهوجل مستأنسا * بهوجل مستأنس عنتريس

عنى بالهوجل الاول الارض وبالثانى الناقة ومثله قول زياد الاعجم

ونبأتهم يستنظرون بكاهل * وللوم فيهم كاهل وسنام

ومثله قول أبى دواد

عهدت لها منزلا دائرا * والا على الماء يحملن الا

فالال الاول أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقى والال الثانى السراب وليس عنده قول من قال المطابقة انما تكون باجتماع الشئ وضده بشئ ومن المعنى الاول قول الشاعر

أهين لهم نفسى لاكرمها بهم * ولن تكرم النفس التى لا تهينها

ومثله قول امرئ القيس

وتردى على صم صلاب ملاطس * شديدات عقد لينات متان

وكقول النابغة

ولا يحسبون الخير لا شر بعده * ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وكقول زهير وقد جمع فيه طباقين

بعزمة مأمور مطيع وآمر * مطاع فلا يلقى لحزمهم مثل

وكقول الفرزدق

والشيب ينهض فى الشباب كأنه * ليل يصيح بجانبيه نهار

ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير

وباسط خير فيكم بيمينه * وقابض شر عنكم بشماليا

وكقول رجل من بلعنبر

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة * ومن اساءة أهل السوء احسانا

وروى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه تمثل بقول القائل

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل * ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

وكقول الآخر

فسرى كاعلانى وتلك سجيتى * وظلمة ليلى مثل ضوء نهار يا

وكقول قيس بن الخطيم

Digitized by Google

اذا أنت لم تنفع فضر فانما ● يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

وكقول السموأل وماضرنا انا قليل وجارنا ● عزيز وجار الاكثرين ذليل

فهذا باب يرونه من البديع وباب آخر وهو التجنيس ومعنى ذلك ان تأتى بكلمتين متجانستين فمنه ماتكون الكلمة تجانس الاخرى فى تأليف حروفها واليه ذهب الخليل ومنهم من زعم ان المجانسة ان تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق كقوله عز وجل فأقم وجهك للدين القيم وكقوله وأسلمت مع سليمان وكقوله يا أسفا على يوسف وكقوله الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وكقوله وهم ينهون عنه وينأون عنه وكقول النبى صلى الله عليه وسلم أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله وكقوله الظلم ظلمات يوم القيامة وقوله لايكون ذو الوجهين وجيها عند الله وكتب بعض الكتاب العذر مع التعذر واجب فرأيك فيه وقال معاوية لابن عباس مالكم يابنى هاشم تصابون فى أبصاركم فقال كما تصابون فى بصائركم وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه هاجروا ولاتهجروا ومن ذلك قول قيس بن عاصم

ونحن حفرنا الحوفزان بطعنة ✱ كسته نجيعا من دم الجوف أشكلا

وقال آخر أمل عليها بالبلى الملوان

وقال الآخر وذاكم ان ذل الجار حالفكم ● وان انفكم لاتعرف الانفا

وكتب الى بعض مشايخنا قال أنشدنا الاخفش عن المبرد عن التوزى

وقالوا حمامات فهم لقاؤها ● وطلح فزيرت والمطى طلوح

عقاب باعقاب من النأى بعدما ● جرت نية تنسى المحب طروح

وقال صحابى هدهد فوق بانة ● هدى وبيان بالنجاح يلوح

وقالوا دم دامت مواثيق عهده ● ودام لنا حسن الصفاء صريح

وقال آخر أقبلن من مصر يبارين البرى

وقال القطامى ولما ردها فى الشول شالت ● بذيال يكون لها لفاعا

وقد يكون التجنيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك كقول البحترى

هل لمافات من تلاف تلاف ● أم لشاك من الصبابة شاف

وقال ابن مقبل

يمشين هيل النقا مالت جوانبه ● ينهال حينا وينهاه الثرى حينا

وقال زهير

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا ● لاينكلون اذا ما استلحموا وحموا

ومن ذلك قول أبي تمام

يمدون من أيد عواص عواصم ● تصول بأسياف قواض قواضب

وأبو نواس يقصد في مصراعي مقدمات شعره هذا الباب كقوله

ألا دارها بالماء حتى تلينها ● فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

وكذلك قوله ديار نوار ما ديار نوار ● كسونك شجواهن منه عوار

وكقول ابن المعتز

سأثني على عهد المطيرة والقصر ● وأدعو لها بالساكنين وبالقطر

وكقوله هي الدار الا انها منهم قفر ● واني بها ثاو وانهم سفر

وكقوله للدهر حديث يقر ● ويسوء الدهر من قد يسر

وكقول المتنبي

وقد أراني الشباب الروح في بدني ● وقد أراني المشيب الروح في بدلي

وقد قيل ان من هذا القبيل قوله عز وجل خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون وقوله قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ويعدون من البديع المقابلة وهي ان يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده وذلك مثل قول النابغة الجعدي فتى تم فيه ما يسر صديقه ● على ان فيه ما يسوء الاعاديا

وقال تأبط شرا

أهز به في ندوة الحي عطفه ● كما هز عطفي بالهجان الاوارك

وكقول الآخر

واذا حديث ساءني لم أكتئب ● واذا حديث سرني لم أسرر

وكقول الآخر

وذي اخوة قطعت أقران بينهم * كما تركوني واحدا لا أخا ليا

ونظيره من القرآن ثم اذا مسكم الضر فاليه تجارون ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ويعدون من البديع الموازنة وذلك كقول بعضهم اصبر على حر اللقا ومضض النزال وشدة المصارع وكقول امرئ القيس * سليم الشظا عبل الشوى شيخ النسا *

ونظيره من القرآن والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود ويعدون من البديع المساواة وهي ان يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه وذلك يعد من البلاغة وذلك كقول زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ● وان خالها تخفى على الناس تعلم

وكقول جرير فلو شاء قومي كان حلمي فيهم ● وكان على جهال أعدائهم جهلي

وكقول الآخر

اذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا ● أصبت حليما أو أصابك جاهل

وكقول الهذلي

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها ● وأول راض سيرة من يسيرها

وكقول الآخر

فان هم طاوعوك فطاوعيهم ● وان عاصوك فاعصى من عصاك

ونظير ذلك في القرآن كثير ومما يعدونه من البديع الاشارة وهو اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة وقال بعضهم في وصف البلاغة لمحة دالة ومن ذلك قول طرفة

فظل لنا يوم لذيذ بنعمة ● فقل في مقيل نحسه متغيب

وكقول زيد الخيل

نخيبة من يخيب على غنى ● وباهلة بن أعصر والرباب

ونظيره من القرآن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى ومواضع كثيرة ويعدون من البديع المبالغة والغلو والمبالغة تأكيد معاني القول وذلك كقول الشاعر ونكرم جارنا ما كان فينا * وتتبعه الكرامة حيث مالا

ومن ذلك قول الآخر

وهم تركوك أسلح من حبارى ● رأت صقرا وأشرد من نعام

فقوله رأت صقرا مبالغة ومن الغلو قول أبي نواس

توهمتها في كأسها فكأنما ● توهمت شيأ ليس يدركه العقل

فما يرتقي التكييف فيها الى مدى ● يحد به الا ومن قبله قبل

وقول زهير

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ● قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

وكقول النابغة بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ● وانا نرجو فوق ذلك مظهرا

وكقول الخنساء

وما بلغت كف امرئ متناول * بها المجد الا حيثما نلت أطول

وما بلغ المهدون في القول مدحة * وان أطنبوا الا الذي فيك أفضل

وقول الآخر

له همم لا منتهى لكبارها * وهمته الصغرى أجل من الدهر

Digitized by Google

له راحة لو ان معشار جودها * على البر صار البر أندى من البحر

ويرون من البديع الايغال فى الشعر خاصة فلا يطلب مثله فى القرآن الا فى الفواصل كقول امرئ القيس

كأن عيون الوحش حول خبائنا * وأرجلنا الجزع الذى لم يثقب

وقد أوغل بالقافية فى الوصف وأكد التشبيه لها والمعنى قد يستقل دونها ومن البديع عندهم التوشيح وهو ان يشيد أول البيت بقافيته وأول الكلام بآخره كقول البحترى

فليس الذى حللته بمحلل * وليس الذى حرمته بحرام

ومثله فى القرآن فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ومن ذلك رد عجز الكلام على صدره كقول الله عز وجل انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكقوله لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ومن هذا الباب قول القائل

وان لم يكن الا تعلل ساعة * قليلا فانى نافع لى قليلها

وكقول جرير سقى الرمل جون مستهل غمامه * وماذا له الاحب من حل بالرمل

وكقول الآخر

يود الفتى طول السلامة والغنى * فكيف يرى طول السلامة يفعل

وكقول أبى صخر الهذلى

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وكقول الآخر

أصد بأيدى العيس عن قصد أرضها * وقلبى اليها بالمودة قاصد

وكقول عمرو بن معدى كرب

اذا لم تستطع شيأ فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

ومن البديع صحة التقسيم ومن ذلك قول نصيب

فقال فريق القوم لا وفريقهم * نعم وفريق قال ويحك ما يدرى

وليس فى أقسام الجواب أكثر من هذا وكقول الآخر

فكأنما فيه نهار ساطع * وكأنه ليل عليها مظلم

وقول المقفع الكندى

وان يأكلوا لحمى وفرت لحومهم * وان يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا

وان ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم * وان هم هووا غيى هويت لهم رشدا

وان زجروا طيرا بنحس تمر بي * زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا

وكقول عروة بن حزام

بمن لو رآه غائبا لفديته * ومن لو رآني غائبا لفداني

ونحوه قول الله عز وجل الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ونحوه صحة التفسير كقول القائل ولي فرس للعلم بالحلم ملجم * ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

ومن البديع التكميل والتتميم كقول نافع بن خليفة

رجال اذا لم يقبلوا الحق منهم * ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع

وانما تم جودة المعنى بقوله ويعطوه وذلك كقول الله عز وجل ان الله عنده علم الساعة الى آخر الآية ثم قال ان الله عليم خبير ومن البديع الترصيع وذلك من ألوان منها قول امرئ القيس محش مخش مقبل مدبر معا * كتيس ظباء الحلب في العدوان

ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس

يا منة امتنها السكر * ما ينقضي مني لها الشكر

وكقوله وقد ذكرناه قبل هذا

ديار نوار ما ديار نوار * كسونك شجواهن منه عوار

ومن ذلك الترصيع مع التجنيس كقول ابن المعتز

ألم تجزع على الربع المحيل * واطلال وآثار محول

ونظيره من القرآن كقوله ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون وقوله ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجرا غير ممنون وكقوله وانه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير لشديد وكقوله والطور وكتاب مسطور وقوله والسابحات سبحا فالسابقات سبقا وقد أولع الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف الكلام ومنهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومي أبدانهن وما لبسـ * ـن من الحرير معا حرير

أردانهن وما مسـ * ـسن من العبير معا عبير

وكقوله فلراهب أن لا يريب أمانه * ولراغب أن لا يريث نجاحه

ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى المضارعة وذلك كقول الخنساء

حامي الحقيقة محمود الخليقة مه * دي الطريقة نفاع وضرار

جواب قاصية جزاز ناصية * عقاد ألوية للخيل جرار

Digitized by Google

ومن البديع باب التكافؤ وذلك قريب من المطابقة كقول المنصور لاتخرجوا من عز الطاعة الى ذل المعصية وقول عمر بن ذرانا لم نجدلك اذعصيت الله فينا خيرا من ان نطيع الله فيك ومنه قول بشار

اذا أيقظتك حروب العدا * فنبه لها عمرا ثم نم

ومن البديع باب التعطف كقول امرئ القيس * عودعلى عودعلى عودخلق *

وقد تقدم مثاله ومن البديع السلب والايجاب كقول القائل

وننكران شئنا على الناس قولهم * ولاينكرون القول حين نقول

ومن البديع الكناية والتعريض كقول القائل

وأحمر كالديباج أما سماؤه * فريا وأما أرضه فمحول

ومن هذا الباب لحن القول ومن ذلك العكس والتبديل كقول الحسن ان من خوفك لتأمن خير ممن أمنك لتخاف وكقوله اللهم اغننى بالفقر اليك ولاتفقرنى بالاستغناء عنك وكقوله بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا وكقول القائل

واذا الدرز ان حسن وجوه * كان للدر حسن وجهك زينا

وقد يدخل فى هذا الباب قوله تعالى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ومن البديع الالتفات فمن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله العسكرى أخبرنا محمد بن عبد الله الصولى حدثنى يحيى بن على المنجم عن أبيه عن اسحاق بن ابراهيم قال قال لى الاصمعى أتعرف التفاتات جرير قلت لا فما هى قال

أتنسى اذتودعنا سليمى * بفرع بشامة سقى البشام

ومثل ذلك لجرير

متى كان الخيام بذى طلوح * سقيت الغيث ايتها الخيام

ومعنى الالتفات انه اعترض فى الكلام قوله سقيت الغيث ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتا وكان الكلام منتظما وكان يقول متى كان الخيام بذى طلوح أيتها الخيام فمتى خرج عن الكلام الاول ثم رجع اليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتا ومثله قول النابغة الجعدى ألا زعمت بنو سعد بأنى * ألا كذبوا كبير السن فانى

ومثله قول كثير

لو ان الباذلين وأنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا

ومثله قول أبى تمام

وأنجدتم من بعد اتهام داركم * فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

وكقول جرير

طرب الحمام بذى الاراك فشاقنى * لازلت فى غلل وأيك ناضر

التفت الى الحمام فدعا لها ومثله قول حسان

ان التى ناولتنى فرددتها * قبلت قبلت فهاتها لم تقتل

ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

وأجل اذا ما كنت لابد مانعا * وقد يمنع الشئ الفتى وهو مجمل

وكقول ابن ميادة

فلا صرمه يبدو وفى اليأس راحة * ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

وتظير ذلك من القرآن ماحكى الله تعالى عن ابراهيم الخليل من قوله اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا الى قوله فما كان جواب قومه وقوله عز وجل ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز وبرزوا لله جميعا ومثله قوله حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة الى آخر الآية ومثله قوله واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الى قوله فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ومثله قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه ومنهم من لايعد الاعتراض والرجوع من هذا الباب ومنهم من يفرده عنه كقول زهير

قف بالديار التى لم يعفها القدم * نعم وغيرها الارواح والديم

وكقول الاعرابى

أليس قليلا نظرة ان نظرتها * اليك وكلا ليس منك قليل

وكقول ابن هرمة

ليت حظى كلحظة العين منها * وكثير منها القليل المهنا

ومن الرجوع قول القائل

بكل تداوينا فلم يشف مابنا * على ان قرب الدار خير من البعد

وقال الاعشى

صرمت ولم أصرمكم وكصارم * أخ قد طوى كشحا وآب ليذهبا

وكقول بشار

لى حيلة فيمن ينم * وليس فى الكذاب حيله

من كان يخلق مايقو * ل فحيلتى فيه قليله

Digitized by Google

وقال آخر

ومابي انتصار ان غدا الدهر ظالمي ● على بل ان كان من عندك النصر

وباب آخر من البديع يسمى التذييل وهو ضرب من التأكيد وهو ضد ما قدمنا ذكره من الاشارة كقول أبي رواد

اذا ماعقدنا له ذمـــة ★ شددنا العناج وعقد الكرب

وأخذه الحطيئة فقال

فدعوا نزال فكنت أول نازل ● وعلام أركبه اذا لم أنزل

وكقول جرير لقد كنت فيها يا فرزدق تابعا ★ وريش الذنابى تابع للقوادم

ومثله قوله عز وجل ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا الى قوله انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين الى قوله كانوا خاطئين

★ وباب من البديع يسمى الاستطراد فمن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله قال أنشدنى أبو بكر بن دريد قال أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة لحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه

ان كنت كاذبة التى حدثتنى ★ فنجوت منجا الحرث بن هشام

ترك الاحبة لم يقاتل دونهم ★ ورمى برأسى طمرة ولجام

وكقول السموأل

وانا القوم لانرى القتل سبة ★ اذا ما رأته عامر وسلول

وكقول الآخر

خليلى من كعب أعينا أخاكما ● على دهره ان الكريم معين

ولا تبخلا بخل ابن قرعة انه ● مخافة ان يرجى ثراه حزين

وكقول الآخر

فاذر قرن الشمس حتى كأننا ● من العى نحكى أحمد بن هشام

وكقول زهير

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ ● ـكن الجواد على علاته هرم

وفيما كتب الى الحسن بن عبد الله قال أخبرنى محمد بن يحيى حدثنى محمد بن على الانبارى قال سمعت البحترى يقول أنشدنى أبو تمام لنفسه

وسابح هطل التعداء هتان ● على الجراء أمين غير خوان

أظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه ● كحل عينك فى ريان ظمآن

ولو تراه مشيها والحصى فلق * بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت ان لم تثبت ان حافره * من صخر تدمر أو من وجه عثمان

وقال لى ماهذا من الشعر قلت لا أدرى قال هذا المستطرد أو قال الاستطراد قلت وما معنى ذلك قال يرى انه يصف الفرس ويريد هجاء عثمان فقال وقال البحترى

ما ان يعاف قذى ولو أوردته * يوما خلائق حمدويه الاحول

قال فقيل للبحترى انك أخذت هذا من أبى تمام فقال مايعاب على ان آخذ منه وأتبعه فيما يقول ومن هذا الباب قول أبى تمام

صب الفراق علينا صب من كثبا * عليه اسحق يوم الروع منتقما

ومنه قول السرى الرفاء

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة * يرمى بسهم الحين من يرمى به
ليت الزمان أصاب حب قلوبهم * بقنا ابن عبد الله أو بحرابه

ونظيره من القرآن أولم يروا الى ماخلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون كأنه كان المراد ان يجرى بالقول الاول الى الاخبار عن ان كل شئ يسجد لله عز وجل وان كان ابتداء الكلام فى أمر خاص ومن البديع عندهم التكرار كقول الشاعر

هلا سألت جموع كن * دة يوم ولوا أين أين

وكقول الآخر

وكانت فزارة تصلى بنا * فأولى فزارة أولى لها

ونظيره من القرآن كثير كقوله ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وكالتكرار فى قوله قل يا أيها الكافرون وهذا فيه معنى زائد على التكرار لانه يفيد الاخبار عن الغيب ومن البديع عندهم ضرب من الاستثناء كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

وكقول النابغة الجعدى

فتى كملت أخلاقه غير انه * جواد فلا يبقى من المال باقيا
فتى تم فيه مايسر صديقه * على ان فيه مايسوء الاعاديا

وكقول الآخر

حليم اذا ما الحلم زين أهله * مع الحلم فى عين العدو مهيب

وكقول أبى تمام

تنصل ربها من غير جرم * اليك سوى النصيحة والوداد

ووجوه البديع كثيرة جدا فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على مالم نذكر كراهة التطويل فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع وقد قدر مقدرون انه يمكن

Digitized by Google

استفادة اعجاز القرآن من هذه الابواب التى نقلناها وان ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه وليس كذلك عندنا لان هذه الوجوه اذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل اليها بالتدرب والتعود والتصنع لها وذلك كالشعر الذى اذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه والوجوه التى نقول ان اعجاز القرآن يمكن ان يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال ويبين ما قلنا ان كثيرا من المحدثين قد تصنع لابواب الصنعة حتى حشى جميع شعره منها واجتهد ان لا يفوته بيت الا وهو يملؤه من الصنعة كما صنع أبو تمام فى لاميته

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل ● وصدرك منها مدة الدهر آهل
تظل طلول الدمع فى كل موقف ● وتمثل بالصبر الديار الموائل
دوارس لم يحفز الربيع ربوعها * ولا مر فى اغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحاب ذيولها ● وقد أخجلت بالنور تلك الخمائل
تعفين من زاد العفاة اذا انتحى ● على الحى صرف الازمة المتماحل
لهم سلف سمر العوالى وسامر ● وفهم جمال لا يغيض وجامل
ليالى أضلت العزاء وخذلت ● بعقلك آرام الخدور العقائل
من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت ● لها وشحا حالت عليه الخلاخل
مهى الوحش الا انها تأوانس ● قنا الخط الا ان تلك ذوابل
هوى كان خلسا ان من أطيب الهوى * هوى حلت فى أفيائه وهو خامل

ومن الادباء من عاب عليه هذه الابيات ونحوها على ما قد تكلف فيها من البديع وتعمل من الصنعة فقال قد اذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه وقد تعصب عليه أحمد بن عبيد الله بن عمار وأسرف حتى تجاوز الى الغض من محاسنه ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع فى القبيح وهو يريد ان يبدع فى الحسن كقوله فى قصيدة له أولها

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد * وعاد قتادا عندها كل مرقد

فقال فيها لعمرى لقد حررت يوم لقيته * لوان القضاء وحده لم يبرد

وكقوله لو لم تدارك مسن المجد مذ زمن ● بالجود والباس كان المجد قد خرفا

فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت كقوله

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت * أعمارهم قبل نضج التين والعنب

وكقوله لو لم يمت بين أطراف الرماح اذا * لمات اذ لم يمت من شدة الحزن

Digitized by Google

وكقوله خشنت عليه أخت بنى خشين

وكقوله ألا لايعد الدهر كفا بسيئ ● الى مجتدى نصر فتقطع من الزند

وقال فى وصف المطايا

لو كان كلفها عبيد حاجة ● يوما لزنى شدقها وجديلا

وكقوله فضربت الشتاء فى أخدعيه * ضربة غادرته عودا ركوبا

فهذا وما أشبهه انما يحدث من غلوه فى محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب وربما أسرف فى المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصعه وكان التكلف باردا والتصرّف جامدا وربما اتفق مع ذلك فى كلامه النادر المليح كما يتفق البارد القبيح فأما البحترى فانه لايرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام ويقل التصنع له فاذا وقع فى كلامه كان فى الاكثر حسنا رشيقا وظريفا جميلا وتصنعه للطابق كثير حسن وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلاسة فلذلك يخرج سليما من العيب فى الاكثر وأما وقوف الالفاظ به عن تمام الحسنى وقعود العبارات عن الغاية القصوى فشئ لابد منه وأمر لامحيص عنه كيف وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدرا فى هذه الصنعة وأكبر فى الطبقة كامرئ القيس وزهير والنابغة والى يومه ونحن نبين تميز كلامه وانحطاط درجة قولهم ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن فى باب مفرد يتصور به ذوالصنعة مايجب تصوره ويتحقق وجه الاعجاز فيه بمشيئة الله وعونه ثم رجع الكلام بنا الى ماقدمناه من انه لاسبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع الذى ادّعوه فى الشعر ووصفوه فيه وذلك ان هذا الفن ليس فيه مايخرق العادة ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق فى البلاغة وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقى فيه اليه ومثال قديقع طالبه عليه فرب انسان يتعوّد ان ينظم جميع كلامه شعرا أو يتعوّد ان يكون جميع خطابه سجعا أو صنعة متصلة لايسقط من كلامه حرف وقد يباده به ماقد تعوّده وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن فى جزء وكذلك يؤلفون أنواع البارع ثم ينظرون فيه اذا أرادوا انشاء قصيدة أو رسالة أوخطبة فيحشون به كلامهم ومن كان قد تدرب وتقدم فى حفظ ذلك اشتغل عن هذا التصنيف ولم يحتج الى تكلف هذا التأليف وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطا من باع كلامه وموشحا بأنواع البديع مايحاوله من قوله وهذا طريق لايتعذر وباب لايمتنع وكل يأخذ فيه مأخذا ويقف فيه موقفا على قدر مامعه من المعرفة وبحسب مايعده من الطبع فأما شأو نظم القرآن

Digitized by Google

فليس له مثال يحتذى اليه ولا امام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشئ القليل العجيب وكما يلحق بكلامه بالوحشيات ويضاف من قوله الى الاوابد لان ماجرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع فانما يتفق للشاعر فى اما من شعره وللكاتب فى قليل من رسائله وللخطيب فى يسير من خطبه ولو كان كل شعره نادرا ومثلا سائرا ومعنى بديعا ولفظا رشيقا وكل كلامه مملوأ من رونقه ومائه ومملأ ببهجته وحسن رواته ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين والمتردد بين الطرفين ولا البارد المستثقل والغث المستنكر لبين الاعجاز فى الكلام ولبين التفاوت العجيب بين النظام والنظام وهذه جملة تحتاج الى تفصيل ومبهم قد يحتاج فى بعضه الى تفسير وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه ولكن قد يمكن ان يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه اليهم ان ذلك باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة وانه لاينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم ولا وجه من وجوه فصاحاتهم واذا أوردهذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديرا وانما لم نطلق القول اطلاقا لانا لانجعل الاعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ووقفا عليها ومضافا اليها وان صح ان تكون هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة آخذة بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت فى الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع

﴿ فصل فى كيفية الوقوف على اعجاز القرآن ﴾

قد بينا انه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم ان يعرفوا اعجاز القرآن الا ان يعلموا ان العرب قد عجزوا عن ذلك فاذا عرفوا هذا بأن علموا انهم قد تحدوا على ان يأتوا بمثله وقرعوا على ترك الاتيان بمثله ولم يأتوا به تبينوا انهم عاجزون عنه واذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز وكذلك نقول ان من كان من أهل اللسان العربى الا انه ليس يبلغ فى الفصاحة الحد الذى يتناهى الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة ومايعدونه فصيحا بليغا بارعا من غيره فهو كالاعجمى فى انه لا يمكنه ان يعرف اعجاز القرآن الا بمثل ما بينا ان يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء فأما من كان قد تناهى فى معرفة اللسان العربى ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذى ينتهى اليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف مايخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الجيد والردىء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب وهذا كما

يميز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف الصيرفي من النقد مايخفى على غيره ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته مايخفى على غيره وان كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر وربما اختلفوا فيه لان من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه وترتوع بهجته ورواؤه ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى كما يختار قوم مايخمض معناه ويغرب لفظه ولا يختار ما سهل على اللسان وسبق الى البيان وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيرا فقال كان لا يمدح الرجل الا بما فيه وقال لعبد بني الحسحاس حين أنشده * كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا *

أما انه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه وروى ان جريرا سئل عن أحسن الشعر فقال قوله

ان الشقي الذي في النار منزله * والفوز فوز الذي ينجو من النار

كأنه فضله لصدق معناه ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والافراط فيه حتى ربما قالوا احسن الشعر أكذبه كقول النابغة

يقد السلوقي المضاعف نسجه * ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في الغلو والاقتصاد وفي المتانة والسلاسة ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة والطف تعملا وان يتخير الالفاظ الرشيقة للمعاني البديعة والقوافي الواقعة كمذهب البحتري وعلى ماوصفه عن بعض الكتاب

في نظام من البلاغة ماشـ ـك امرؤ انه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا * حك في رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختيارا * وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادرك * ن به غاية المراد البعيد

ويرون ان من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا ولم يروه شاعرا ولا مصيبا وفيما كتب الحسن بن عبد الله أبو أحمد العسكري قال أخبرني محمد بن يحيى قال أخبرني عبد الله بن الحسن قال قال لي البحتري دعاني علي بن الجهم فضيت اليه فافضنا في اشعار المحدثين الى ان ذكرنا شعرا أشجع فقال لي انه يخلي وأعادها مرات ولم أفهمها وانفت ان أسأله عن معناها فلما انصرفت افكرت في الكلمة ونظرت في شعره فاذا هو ربما مرت له الابيات مغسولة ليس فيها بيت رائع واذا هو يريد هذا بعينه ان يعمل الأبيات فلا يصيب فيها بيت نادر كما أن الرامي اذا رمى برشقه فلم يصب بشئ قيل قد أخلى قال وكان علي بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر وقوم من أهل اللغة يميلون الى الرصين من الكلام الذي يجمع الغريب والمعاني

Digitized by Google

مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والاصمعي ومنهم من يختار الوحشي من الشعر كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات وقيل انه اختار ذلك لميله الى ذلك الفن وذكر الحسن ابن عبد الله انه أخبره بعض الكتاب عن علي بن العباس قال حضرت مع البحتري مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد سأل البحتري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر فقال البحتري أبو نواس أشعر فقال عبيد الله ان أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك ويفضل مسلما فقال البحتري ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله انما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته فقال له عبيد الله وريت بك زنادي يا أبا عبادة وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال جرير أشعرهما فقيل له بماذا فقال لان جريرا يشتد اذا شاء وليس كذلك الفرزدق لانه يشتد ابدا فقيل له فان يونس وأبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير فقال ليس هذا من عمل أولئك القوم انما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله وفي الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق ولقد مات النوار امرأته فناح عليها بقول جرير

لولا الحياء لعادني استعبار * ولزرت قبرك والحبيب يزار

وروى عن ابي عبيدة انه قال للفرزدق مالك لا تنسب كما ينسب جرير فغاب حولا ثم جاء فانشد

يا أخت ناجية بن سامة انني * أخشى عليك بني ان طلبوا دمي

والاعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة وما اختاره من الوحشيات وذلك انه تنكر المستنكر الوحشي والمبتذل العامي وأتى بالواسطة وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ولا يعدل به غرض يخص لان الذين اختاروا الغريب فانما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم واظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ولم يكن قصدهم جيد الاشعار لشئ يرجع اليها في انفسها وبين هذا ان الكلام موضوع للابانة عن الاغراض التي في النفوس واذا كان كذلك وجب ان يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد وأوضح في الابانة عن المعنى المطلوب ولم يكن مستكره المطلع على الاذن ومستنكر المورد على النفس حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الافهام أو يمتنع بتعويص معناه عن الابانة ويجب ان يتنكب ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة ركيك المعنى سفسافي الوضع مختلب التأسيس على غير أصل ممهد ولا طريق موطد وانما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع ولذلك وضع أصلها على أكثرها بالحروف المعتدلة فقد أهملوا الالفاظ المستكرهة في نظمها وأسقطوها من كلامهم فجرى لسانهم على الاعدل ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي لانهم بدؤا بحرف وسكتوا على آخر

وجعلوا حرفا وصلة بين الحرفين ليتم الابتداء والانتهاء على ذلك والثنائى أقل وكذلك الرباعى والخماسى أقل ولو كان كله ثنائيا لتكررت الحروف ولو كان كله رباعيا أو خماسيا لكثرت الكلمات وكذلك بنى أمر الحروف التى ابتدئ بها السور على هذا فأكثر هذه السور التى ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف وما هو أربعة أحرف سورتان وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه فمنهم من لم يجعل ذلك حرفا وانما جعله فعلا واسما لشئ خاص ومن جعل ذلك حرفا قال أراد ان يحقق الحروف مفردها ومنظومها ولضيق ماسوى كلام العرب أو لخروجه عن الاعتدال يتكرر فى بعض الالسنة الحرف الواحد فى الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرا كنحو تكرر الطاء والسين فى لسان يونان وكنحو الحروف الكثيرة التى هى اسم لشئ واحد فى لسان الترك ولذلك لا يمكن ان ينظم من الشعر فى تلك الالسنة على الاعاريض التى تمكن فى اللغة العربية والعربية أشدها تمكنا وأشرفها تصرفا وأعدلها ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن وعلق بها الاعجاز وصارت دلالة فى النبوة واذا كان الكلام انما يفيد الابانة عن الاغراض القائمة فى النفوس التى لا يمكن التوصل اليها بأنفسها وهى محتاجة الى ما يعبر عنها فما كان أقرب فى تصويرها وأظهر فى كشفها للفهم الغائب عنها وكان مع ذلك أحكم فى الابانة عن المراد وأشد تحقيقا فى الايضاح عن الطلب وأعجب فى وضعه وأرشق فى تصرفه وأبرع فى نظمه كان أولى وأحق بأن يكون شريفا وقد شبهوا النطق بالخط والخط يحتاج مع بيانه الى رشاقة وصحة ولطف حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال وشبهوا الخط والنطق بالتصوير وقد أجمعوا ان من أحذق المصورين من صور لك الباكى المتضاحك والباكى الحزين والضاحك المتباكى والضاحك المستبشر وكما انه يحتاج الى لطف يد فى تصوير هذه الامثلة فكذلك يحتاج الى لطف فى اللسان والطبع فى تصوير ما فى النفس للغير وفى جملة الكلام الى ما تقصر عبارته وتفضل معانيه وفيه ما تقصر المعانى وتفضل العبارات وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقا للآخر ثم ينقسم ما يقع وفقا الى انه قد يفيدها على تفصيل وكل واحد منهما قد ينقسم الى ما يفيدها على ان يكون كل واحد منهما بديعا شريفا وغريبا لطيفا وقد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلفا ومصنوعا متعسفا وقد يكون كل واحد منهما حسنا رشيقا وبهيجا نضيرا وقد يتفق أحد الامرين دون الآخر وقد يتفق ان يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة فى واحد منهما انما يميز من يميز ويعرف من يعرف والحكم فى ذلك صعب شديد والفضل فيه شأو بعيد وقد قل من يميز أصناف الكلام فقد حكى عن طبقة أبى عبيدة وخلف الاحمر وغيرهم فى زمانهم انهم قالوا ذهب من يعرف نقد الشعر

Digitized by Google

وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم فى الاختيار وما يجب ان يجمعوا عليه ويرجعوا عند التحقيق اليه وكلام المقتدر غط وكلام المتوسع باب وكلام المطبوع له طريق وكلام المتكلف له منهاج والكلام المصنوع المطبوع له باب ومتى تقدم الانسان فى هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه ولم تشتبه عنده هذه الطرق فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه وقدر كل كلام فى نفسه ويحله محله ويعتقد فيه ما هو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم وان كان المتكلم يجود فى شئ دون شئ عرف ذلك منه وان كان يعم احسانه عرف الا ترى ان منهم من يجود فى المدح دون الهجو ومنهم من يجود فى الهجو وحده ومنهم من يجود فى المدح والسخف ومنهم من يجود فى الاوصاف والعالم لا يشذ عنه مراتب هؤلاء ولا يذهب عليه اقدارهم حتى انه اذا عرف طريقة شاعر فى قصائد معدودة فأنشد غيرها من شعره لم يشك ان ذلك من نسجه ولم يرتب فى انه من نظمه كما انه اذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره وكذلك أمر الخطب فان اشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقين وتماثل الصورتين كما قد يشتبه شعر أبى تمام بشعر البحترى فى القليل الذى يترك أبو تمام فيه التصنع ويقصد فيه التسهل ويسلك الطريقة الكتابية ويتوجه فى تقريب الالفاظ وترك تعويص المعانى ويتفق له مثل بهجة أشعار البحترى وألفاظه ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبى نواس ولا نسج ابن الرومى من نسج البحترى وينبهه ديباجة شعر البحترى وكثرة مائه وبديع رونقه وبهجة كلامه الا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومى ويحركه ما لشعر أبى نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم وكذلك يميز بين شعر الاعشى فى التصرف وبين شعر امرئ القيس وبين شعر النابغة وزهير وبين شعر جرير والاخطل والبعيث والفرزدق وكل له منهج معروف وطريق مألوف ولا يخفى عليه فى زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين طبقة من بعده حتى انه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده ممن برع فى صنعة الرسائل وتقدم فى شأوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة وأنشأ لنفسه منهاجا فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل وبرع فى ذلك باقتداره وتقدم بحذقه ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره وان كان قد يشتبه البعض ويدق القليل وتغمض الاطراف وتشذ النواحى وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر وتتدانى رسائل كتاب دهر حتى تشتبه اشتباها شديدا وتتماثل تماثلا قريبا فيغمض الفصل وقد يتشاكل الفرع والاصل وذلك

فيما لا يتعذر ادراك أمده ولا يتصعب طلاب شأوه ولا يمتنع بلوغ غايته والوصول الى نهايته لان الذى يتفق من الفصل بين أهل الزمان اذا تفاضلوا وتفاوتوا فى مضمار فصل قريب وأمر يسير وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الالفاظ وسارق المعانى ولا من يخترعها ولا من يلم بها ولا من يجاهر بالاخذ ممن يكاتم به ولا من يخترع الكلام اختراعا ويبتدهه ابتداها ممن يروى فيه ويجيل الفكر فى تنقيحه ويصبر عليه حتى يتخلص له ما يريد وحتى يتكرر نظره فيه قال أبو عبيدة سمعت أبا عمرو يقول زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين وكان زهير يسمى كبر شعره الحوليات المنقحة وقال عدى بن الرقاع

وقصيدة قد بت أجمع بينها * حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته * حتى يقيم ثقافه منآدها

وكقول سويد بن كراع

أبيت بأبواب القوافى كأنما * أصادى بها سربا من الوحش نزّعا

ومنهم من يعرف بالبديهة وحدة الخاطر ونفاد الطبع وسرعة النظم يرتجل القول ارتجالا ويطبعه عفوا صفوا فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم وكذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوى واللفظ الملوكى كما لا يخفى عليهم الكلام العامى واللفظ السوقى ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلا ويعطونه كيف تصرف حقوقه ويعرفون مراتبه فلا يخفى عليهم ما يختص به كل فاضل تقدم فى وجه من وجوه النظم من الوجه الذى لا يشاركه فيه غيره ولا يساهمه سواه ألا تراهم وصفوا زهيرا بأنه أمدحهم وأشدهم اثر شعر قاله أبو عبيدة وروى ان الفرزدق انتحل بيتا من شعر جرير وقال هذا يشبه شعرى فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه اليهم من المعرفة بهذا الشأن وهذا كما يعلم البزازون هذا الديباج عمل بتستر وهذا لم يعمل بتستر وان هذا من صنعة فلان دون فلان ومن نسج فلان دون فلان حتى لا يخفى عليه وان كان قد يخفى على غيره ثم انهم يعلمون أيضا من له سمت بنفسه ورفت برأسه ومن يقتدى فى الالفاظ وفى المعانى أو فيهما بغيره ويجعل سواه قدوة له ومن يلم فى الاحوال بمذهب غيره ويأتى فى الاحيان بمخترعه وهذه أمور ممهدة عند العلماء وأسباب معروفة عند الادباء وكما يقولون ان البحترى يغير على أبى تمام اغارة ويأخذ منه صريحا واشارة ويستأنس بالاخذ منه بخلاف ما يستأنس بالاخذ من غيره ويألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواه وكما كان أبو تمام يلم بأبى نواس ومسلم وكما يعلم ان بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى ويؤلف ما يقوله من فرق شتى وما الذى نفع

المتنبي بجوده الاخذ وانكاره معرفة الطائيين وأهل الصنعة يدلون على كل حرف أخذه منهما جهارا أو الميهما فيه سرارا وأما مالم يأخذ عن الغير ولكن سلك النمط وراعى النهج فهم يعرفونه ويقولون هذا اشبه به من التمرة بالتمرة وأقرب اليه من الماء الى الماء وليس بينهما الا كما بين الليلة والليلة فاذا تباينا وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه وسلك في غير جانبه قيل بينهما ما بين السماء والارض وما بين النجم والنون وما بين المشرق والمغرب وانما أطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك لتعلم ان أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله وغامضه وجليه وقريبه وبعيده ومعوجه ومستقيمه فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متناول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ويبعد عما هو في عرفهم ويفوت مواقع قدرهم واذا اشتبه ذلك فانما يشتبه على ناقص في الصنعة أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ويديرونه بينهم ولا يتجاوزونه فلكلامهم سبل مضبوطة وطرق معروفة محصورة وهذا كما يشتبه على من يدعي الشعر من أهل زماننا والعلم بهذا الشأن فيدعي انه أشعر من البحتري ويتوهم انه أدق مسلكا من أبي نواس وأحسن طريقا من مسلم وأنت تعلم انهما متباعدان وتحقق انهما لا يجتمعان ولعل أحدهما انما يلحظ عبارة صاحبه ويطالع ضياء نجمه ويراعي حفوف جناحه وهو راكد في موضعه ولا يضر البحتري ظنه ولا يلحقه بشأوه وهمه فان اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه انما يخبر عن نقصه ويدل على عجزه ويبين عن جهله ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله وانما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل لتعرف ان ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه أمر لا يجوز غيره ولا يحتمل سواه ولا يشتبه على ذي بصيرة ولا يخبل عند أخي معرفة كما يعرف الفصل بين طباع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المخضرمين وبين المحدثين ويميز بين من يجري على شاكلة طبعه وغريزة نفسه وبين من يشتغل بالتكلف والتصنع وبين من يصير التكلف له كالمطبوع وبين من كان مطبوعه كالمتعمل المصنوع هيهات هيهات هذا أمر وان دق فله قوم يقبلونه علما وأهل يحيطون به فهما ويعرفونه اليك ان شئت ويصورونه لديك ان أردت ويجلونه على خواطرك ان أحببت ويعرضونه لفطنتك ان حاولت وقد قال القائل

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا ● وللدواوين كتاب وحساب

ولكل عمل رجال ولكل صنعة ناس وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ولكن قد قل من يميز في هذا الفن خاصة وذهب من يحصل في هذا الشأن الا قليلا فان كنت ممن هو بالصفة

التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات والتحقق بمجاري البلاغات فانما يكفيك التأمل ويغنيك التصور وان كنت في الصنعة مرمدا وفي المعرفة بها متوسطا فلابد لك من التقليد ولاغنى بك عن التسليم أن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها والشادي فيها كالبائن منها فان أراد ان يقرب عليه أمرا ويفسح له طريقا ويفتح له بابا ليعرف به اعجاز القرآن فانا نضع بين يديه الامثلة ونعرض عليه الاساليب ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنثر ونحضر له من كل فن من القول شيأ يتأمله حق تأمله ويراعيه حق مراعاته فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية الطالع عن الالهية الجامع بين الحكم والحكم والاخبار عن الغيوب والغائبات والمتضمن لصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالالفاظ الشريفة على تمكنها وتصرفها ونعمد الى شئ من الشعر المجمع عليه فنبين وجه النقص فيه وندل على انحطاط رتبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى اذا تأمل ذلك وتأمل ماذكره من تفصيل اعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته انكشف له واتضح وثبت ماوصفناه لديه ووضح وليعرف حدود البلاغة ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ان الفارسي سئل فقيل له ما البلاغة فقال معرفة الفصل من الوصل وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة وسئل الهندي عنها فقال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال مرة التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض وشرد من اللفظ وتعذر وزينته ان تكون الشمائل موزونة والالفاظ معدلة واللهجة نقية وأن لايكلم سيد الامة بكلام الامة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولاينقح الالفاظ كل التنقيح ويصفيها كل التصفية ويهذبها بغاية التهذيب وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة الحذق بطريقة الكلام وتجويده وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى وقد قيل معناها الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جلية ومعان نقية بهية والذي يصور عندك ماضمناه تصويره ويحصل عندك معرفته اذا كنت في صنعة الادب متوسطا وفي علم العربية متبينا ان تنظر اولا في نظم القرآن ثم في شئ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فان

Digitized by Google

تبين لك الفصل ووقعت على جلية الامر وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض وصادفت المقصد وان لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد وعلمت انك من جملة العامة وان سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان

﴿ خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ﴾

روى طلحة بن عبيد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على منبره يقول ألا أيها الناس توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا وبادروا الاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتؤجروا وتنصروا واعلموا ان الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في عامي هذا في شهري هذا الى يوم القيامة حياتي ومن بعد موتي فمن تركها وله امام فلا جمع الله له شمله ولا بارك له في أمره ألا ولا حج له ألا ولا صوم له ألا ولا صدقة له ألا ولا بر له ألا ولا يؤم اعرابي مهاجرا ألا ولا يؤم فاجر مؤمنا الا ان يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه

﴿ خطبة له صلى الله عليه وسلم ﴾

أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ان المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار

﴿ خطبة له صلى الله عليه وسلم ﴾

ان الحمد لله أحمده وأستعينه نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ان أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الاسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس انه أصدق الحديث وأبلغه أحبوا من أحب الله وأحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقسوا عليه قلوبكم اعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ اتقوا الله حق تقاته وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم والسلام عليكم ورحمة الله

﴿ خطبة له صلى الله عليه وسلم في أيام التشريق ﴾

قال بعد حمد الله أيها الناس هل تدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم

قالوا في يوم حرام وشهر حرام و بلد حرام قال ألا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الى يوم تلقونه ثم قال اسمعوا مني تعيشوا ألا لا تظالموا ثلاثا ألا انه لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب نفس منه ألا ان كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه ألا وان أول دم وضع دم ربيعة بن الحرث ابن عبد المطلب كان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل ألا وان كل ربا كان في الجاهلية موضوع ألا وان الله تعالى قضى ان أول ربا يوضع ربا عمي العباس لكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا وان الشيطان قد يئس ان يعبده المصلون ولكن في التحريش بينكم اتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيأ وان لهن عليكم حقا ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم أحدا غيركم فان خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف فانما أخذتموهن بأمانة الله تعالى واستحللتم فروجهن بكلمة الله ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ثم بسط يده فقال ألا هل بلغت ألا هل بلغت ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أبلغ من سامع

﴿ خطبته صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ﴾

وقف على باب الكعبة ثم قال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتل الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة منها أربعون خلفة في بطونها أولادها يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا هذه الآية يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى الآية يا معشر قريش أو يا أهل مكة ما ترون اني فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ قال فاذهبوا فأنتم الطلقاء

﴿ خطبته صلى الله عليه وسلم بالخيف ﴾

روى زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب بالخيف من منى فقال نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها الى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن اخلاص العمل لله والنصيحة لأولي الامر ولزوم الجماعة ان دعوتهم تكون من ورائه ومن كان همه الآخرة

Digitized by Google

جمع الله له شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له

﴿ خطبة له صلى الله عليه وسلم ﴾

(رواها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه)

خطب بعد العصر فقال ألا ان الدنيا خضرة حلوة ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس ان يقول الحق اذا علمه قال ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف فقال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى

﴿ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملك فارس ﴾

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فاسلم تسلم

﴿ كتاب له صلى الله عليه وسلم الى النجاشي ﴾

من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة سلم أنت فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم من طين بيده ونفخه واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني واني أدعوك وجنودك الى الله تعالى فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى

﴿ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية ﴾

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشرين سنة يأمن فيه الناس ويكف فيه بعضهم عن بعض على انه من أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال وانه من أحب ان يدخل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده دخل فيه ومن أحب ان يدخل في عهد قريش وعهدهم دخل فيه وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فاذا كان عاما قابلا خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا وان معك سلاح الراكب والسيوف في الركب فلا تدخلها بغير * هذا ولا أطول عليك واقتصر على ما ألقيته اليك

فان كان لك فى الصنعة حظ أو كان لك فى هذا المعنى حس أو كنت تضرب فى الأدب بسهم أو فى العربية بقسط وان قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب فما أحسب انه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبه ورسائله وما عساك تسمعه من كلامه و يتساقط اليك من ألفاظه وأقدر انك ترى بين الكلامين بونا بعيدا وأمدا مديدا وميدانا واسعا ومكانا شاسعا فان قلت لعله ان يكون تعمل للقرآن وتصنع لنظمه وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه فتثبت فى نفسك وارجع الى عقلك واجمع لبك وتيقن ان الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الفخام ولا يتجوز فيها ولا يستهان بها والرسائل الى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه و يشمر لها عن جد واجتهاد فكيف يقع بها الاخلال وكيف يتعرض للتفريط فستعلم لا محالة ان نظم القرآن من الامر الالهى وان كلام النبى صلى الله عليه وسلم من الامر النبوى فاذا أردت زيادة فى التبين وتقدما فى التعرف واشرافا على الجلية وفوزا بمحكم القضية فتأمل هداك الله ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء لتعلم ان نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبى صلى الله عليه وسلم واحد وسبكها سبك غير مختلف وانما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين و بين شعر الشاعرين وذلك أمر له مقدار معروف وحد ينتهى اليه مضبوط فاذا عرفت ان جميع كلام الآدمى منهاج ولجلته طريق وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت نظرت الى نظم القرآن نظرة أخرى وتأملته مرة ثانية فتراعى بعد موقعه وعالى محله وموضعه وحكمت بواجب من اليقين وثلج الصدر بأصل الدين

﴿ خطبة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ﴾

قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فانى وليت أمركم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبى صلى الله عليه وسلم وعلمنا فعلمنا واعلموا ان أكيس الكيس التقى وان أحمق الحمق الفجور وان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه وان أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فان أحسنت فأعينونى وان زغت فقومونى

﴿ عهد لأبى بكر الصديق الى عمر رضى الله عنهما ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر انى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذاك ظنى به ورأيى فيه وان جار و بدل فلا

Digitized by Google

علم لى بالغيب والخير أردت لكم ولكل امرئ ما اكتسب من الاثم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وفى حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال دخلت على أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى علته التى مات فيها فقلت أراك بارئا ياخليفة رسول الله فقال أما انى على ذلك لشديد الوجع ومالقيت منكم يامعشر المهاجرين أشد على من وجعى انى وليت أموركم خيركم فى نفسى فكلكم ورم أنفه ان يكون له الامر من دونه والله لتغدن نضائد الديباج وستورا الحرير ولتألمن النوم على الصوف الاذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذى نفسى بيده لان يقدم أحدكم فتضرب رقبته فى غير حد خير له من ان يخوض غمرات الدنيا ياهادى الطريق جزت انما هو والله الفجر أو البحر قال فقلت خفض عليك ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان هذا يهيضك الى مابك فوالله مازلت صالحا مصلحا لا تأسى على شئ فاتك من أمر الدنيا ولقد تخليت بالامر وحدك فما رأيت الا خيرا وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على مانقلنا منها قصة السقيفة

(نسخة كتاب)

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فانا عهدنا لك وأمر نفسك لك مهم فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصته من العدل فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك فانا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه وتجب فيه القلوب وانا كنا نتحدث ان هذه الامة ترجع فى آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نعوذ بالله أن تنزل كابنا سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا فانا انما كتبنا اليك نصيحة والسلام

فكتب اليهما من عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فانى أحمد اليكما الله الذى لا اله الا هو أما بعد فقد جاءنى كتابكما تزعمان انه بلغكما انى وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها يجلس بين يدى الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك وانه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك الا بالله وكتبتما تحذرانى ما حذرت به الأمم قبلنا وقديما كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة أو النار ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب وكتبتما تزعمان ان أمر هذه الامة يرجع فى آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس

الى اصلاح دينهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم وكتبتما تعوذانني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذى نزل من قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لى وقد صدقتكما فتعهدانى منكما بكتاب ولاغنى بى عنكما

﴿ عهد من عهود عمر رضى الله عنه ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبدالله بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولاييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أوحرم حلالا ولايمنعنك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولاسنة ثم اعرف الاشباه والامثال وقس الامور عند ذلك واعمد الى أشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه فان أحضر بينة أخذت له بحقه والا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمى المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أوظنينا فى ولاء أونسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالايمان والبينات واياك والغلو والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام ولعمر رضى الله عنه خطب مشهورة مذكورة فى التاريخ لم ننقلها اختصارا

﴿ ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه ﴾

(خطبة له رضى الله عنه)

قال ان لكل شئ آفة وان لكل نعمة عاهة فى هذا الدين عيابون ظنانون يظهرون لكم مانحبون ويسرون ماتكرهون يقولون لكم وتقولون طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق أحب مواردهم اليهم النازح لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم على ولكنه وقمكم وقعكم وزجركم زجر النعام المخزمة والله انى لأقرب ناصرا وأعز نفرا وأقمن ان قلت لهلم أن تجاب دعوتى من عمر هل تفقدون من حقوقكم شيأ فمالى لا أفعل فى الحق ماأشاء اذا فلم كنت اماما

﴿ كتابه الى علي حين حضر رضى الله عنهما ﴾

أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وطمع فى من لا يدفع عن نفسه فاذا أتاك كتابى هذا فاقبل الى علي كنت أم لى

فان كنت مأكولا فكن خير آكل * والا فأدركنى ولما أمزق

(ومن كلام علي رضى الله عنه) قال لما قبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبى صلى الله عليه وسلم وجاء علي باكيا مسترجعا وهو يقول اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر فقال رحمك الله أبا بكر كنت الف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه وثقته وموضع سره كنت أول القوم اسلاما وأخلصهم ايمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله وأعظمهم غناء فى دين الله وأحوطهم على رسوله وآمنهم على الاسلام وآمنهم على أصحابه أحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة وأقربهم برسول الله صلى الله عليه وسلم سننا وهديا ورحمة وفضلا وأشرفهم منزلة وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده جزاك الله عن الاسلام وعن رسوله خيرا كنت عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس فسماك الله فى تنزيله صديقا فقال والذى جاء بالصدق وصدق به واسيته حين بخلوا وقمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة ثانى اثنين وصاحبه فى الغار والمنزل عليه السكينة والوقار ورفيقه فى الهجرة وخليفته فى دين الله وفى أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس فنهضت حين وهن أصحابك وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا وقمت بالامر حين فشلوا ونطقت حين تبعبعوا مضيت بنور اذ وقفوا واتبعوك فهدوا وكنت أصوبهم منطقا وأطولهم صمتا وأبلغهم قولا وأكثرهم رأيا وأشجعهم نفسا وأعرفهم بالامور وأشرفهم عملا كنت للدين يعسوبا أولا حين نفر عنه الناس وآخرا حين اقبلوا وكنت للمؤمنين أبا رحيما اذ صاروا عليك عيالا فحملت أثقال ما ضعفوا ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا شمرت اذ خنعوا وعلوت اذ هلعوا وصبرت اذ جزعوا وأدركت أوتار ما طلبوا وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ونالوا بك ما لم يحتسبوا وكنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن الناس عليه فى صحبتك وذات يدك وكنت كما قال ضعيفا فى بدنك قويا فى أمر الله متواضعا فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى أعين الناس كبيرا فى أنفسهم لم يكن لاحد فيك مغمز ولا لاحد مطمع ولا لمخلوق عندك هوادة الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق القريب والبعيد عندك سواء أقرب الناس اليك أطوعهم لله شأنك الحق والصدق والرفق

قولك حكم وأمرك حزم ورأيك علم وعزم فأبلغت وقد نهج السبيل وسهل العسير وأطفأت النيران واعتدل بك الدين وقوى الايمان وظهر أمر الله ولو كره الكافرون واتعبت من بعدك اتعابا شديدا وفزت بالجد فوزا مبينا فجللت عن البكاء وعظمت رزيتك في السماء وهدت مصيبتك الانام فانا لله وانا اليه راجعون رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبدا فألحقك الله بنبيه ولا حرمنا أجرك ولا أضلنا بعدك وسكت الناس حتى انقضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم

﴿ خطبة أخرى لعلي رضى الله عنه ﴾

أما بعد فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وان الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع وان المضمار اليوم وغدا السباق ألا وانكم في أيام مهل ومن ورائه أجل فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أمله ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة ألا واني لم أر كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها ألا وانه من لم ينفعه الحق يضره الباطل ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال ألا وانكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد ألا وان أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الامل (وخطب) فقال بعد حمد الله أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو وما دنياه التي تحسنت اليه بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر اليه وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر به من الآخرة من سهمته

﴿ وكتب علي رضى الله عنه الى عبد الله بن عباس رحمه الله وهو بالبصرة ﴾

أما بعد فان المرء يسر بدرك مالم يكن ليحرمه ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق وليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعا وما نلته فلا تنعم به فرحا وليكن همك لما بعد الموت

﴿ كلام لابن عباس رضى الله عنه ﴾

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس ما منع أمير المؤمنين ان يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين قال منعه والله من ذلك حاجز القدر وقصر المدة ومحنة الابتلاء أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ناقضا لما ابرم ومبرما لما نقض أسف اذا طار وأطيرا اذا أسف ولكن مضى قدر وبقي أسف ومع يوم ناغد والآخرة خير لامير المؤمنين من الاولى

﴿ خطبة لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه ﴾

أصدق الحديث كتاب الله وأصدق العرا كلمة التقوى خير الملل ملة ابراهيم وأحسن

Digitized by Google

السنن سنة النبي صلى الله عليه وسلم خير الامور أوساطها وشر الامور محدثاتها ماقل وكفى خير مما كثر وألهى خير الغنى غنى النفس وخير ما ألقى فى القلب اليقين الحرجاع الاثم النساء حبالة الشيطان الشباب شعبة من الجنون حب الكفاية مفتاح العجزة من الناس من لا يأتى الجماعة الا دبرا ولا يذكر الله الا هجرا أعظم الخطايا اللسان الكذوب سباب المؤمن فسق وقتاله كفر وأكل لحمه معصية من يتأل على الله يكذبه من يغفر يغفر له مكتوب فى ديوان المحسنين من عفا عفى عنه الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره الامور بعواقبها ملاك العمل خواتيمه أشرف الموت الشهادة من يعرف البلاء يصبر عليه ومن لا يعرف البلاء ينكره

خطبة لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

قال الراوى لما حضرته الوفاة قال لمولى له من بالباب فقال نفر من قريش يتباشرون بموتك فقال ويحك ثم أذن للناس فحمد الله فأوجز ثم قال أيها الناس انا قد أصبحنا فى دهر عنود وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئا ويزداد الظالم فيه عتوا لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف من قارعة حتى تحل بنا فالناس على أربعة أصناف منهم من لا يمنعه الفساد فى الارض الا مهانة نفسه وكلال حده ونضيض وفره ومنهم من المسلط سيفه والمجلب برجله والمعلن بشره قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقتب يقوده أو منبر يقرعه وبئس المتجران تراها لنفسك ثمنا ومما لك عند الله عوضا ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للامانة واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية ومنهم من أقعده عن الملك ضؤله فى نفسه وانقطاع سببه فقصرته الحال فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس الزهاد وليس من ذلك فى مراح ولا مغدى وبقى رجال أغض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر فهم بين شديد نادب وخائف مستكين ومستكم وساكت مكعوم وداع مخلص وموجع ثكلان قد أخملتهم التقية وشملتهم الذلة فهم فى بحر أجاج أفواههم دامية وقلوبهم قريحة قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قلوا فلتكن الدنيا فى عيونكم أقل من حتاتة القرظ وقراضة الجلم واتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم فارفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

أيها الناس انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلعمرى ان كنتم صادقين لقد قصرتم وان كنتم كاذبين لقد هلكتم يا أيها الناس انه من يقدر له رزق برأس جبل أو

بحضيض أرض يأنه فاجلوا فى الطلب

خطبة للحجاج بن يوسف

حمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أهل العراق ويا أهل الشقاق والنفاق ومساوى الاخلاق وبنى اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الاما والفقع بالقرقرانى سمعت تكبيرا لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان وانما مثلى ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمدانى

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم * فهل أنا فى ذا يال همدان ظالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما * وانفا حميا تجتنبك المظالم

أما والله لانقرع عصاعصا الا جعلتها كأمس الدابر

خطبة لقس بن ساعدة الايادى

أخبرنى محمد بن على الانصارى بن محمد بن عامر قال حدثنا على بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمرى قال حدثنا الانصارى على بن محمد الحنظلى من ولد حنظلة الغسيل حدثنا جعفر بن محمد عن محمد بن حسان عن محمد بن حجاج اللخمى عن مجالد عن الشعبى عن ابن عباس قال لما وفد وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيكم يعرف قس بن ساعدة قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله قال لست أنساه بعكاظ اذ وقف على بعير له أحمر فقال أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا سمعتم فعوا واذا وعيتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت أما بعد فان فى السماء لخبرا وان فى الارض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لا تغور أقسم بالله قسما حقا لا كاذبا فيه ولا آثما ان كان فى الارض رضا ليكونن سخط ان لله تعالى دينا هو أحب اليه من دينكم الذى أنتم عليه وقد أتاكم أوانه ولحقتكم مدته مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيكم يروى شعره فأنشدوه

فى الذاهبين الاولين * من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها * يمضى الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضى الى * ولا من الباقين غابر
أيقنت انى لا محا * لة حيث صار القوم صائر

أخبرنى الحسن بن عبد الله بن سعيد حدثنا على بن الحسين بن اسماعيل حدثنا محمد بن زكريا حدثنا عبد الله بن الضحاك عن هشام عن أبيه ان وفدا من اياد قدموا على رسول

Digitized by Google

الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن حال قس بن ساعدة فقالوا قال قس

يا ناعي الموت والاموات في جدث * عليهم من بقايا بزهم خرق

دعهم فان لهم يوما يصاح بهم * كما ينبه من نوماته الصعق

منهم عراة ومنهم في ثيابهم * منها الجديد ومنها الاورق الخلق

مطر ونبات وآباء وامهات وذاهب وآت وآيات في اثر آيات واموات بعد اموات ضوء وظلام وليال وايام وغني وفقير وشقي وسعيد ومحسن ومسيئ أين الارباب الفعلة ليصلحن كل عامل عمله كلا بل هو الله واحد ليس بمولود ولا والد الداعاد وابدى واليه المآب غدا امابعد يامعشر اياد اين ثمود وعاد واين الآباء والاجداد اين الحسن الذي لم يشكر اين الظلم الذي لم ينقم كلا ورب الكعبة ليعودن مابدا ولئن ذهب يوم ليعودن يوم قال وهو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن اياد بن نزار اول من آمن بالبعث من اهل الجاهلية واول من توكأ على عصا واول من تكلم بأما بعد

﴿ خطبة لأبي طالب ﴾

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس وان محمد بن عبد الله بن اخي لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به بركة وفضلا وعدلا ومجدا ونبلا وان كان في المال مقلا فان المال عارية مسترجعة وظل زائل وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما اردتم من الصداق فعلي * قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الاول ومحاوراتهم وخطبهم واحيلك فيما لم انسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن فتأمل ذلك وسائر ماهو مسطر من الاخبار المأثورة عن السلف واهل البيان واللسان والفصاحة والفطن والالفاظ المنثورة والمخاطبات الدائرة بينهم والامثال المنقولة عنهم ثم انظر بسكون طائر وخفض جناح وتفريغ لب وجمع عقل في ذلك فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين وتعلم ان نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة فان خيل اليك أو شبه عليك وظننت انه يحتاج ان يوازن بين نظم الشعر والقرآن لان الشعر افصح من الخطب وابرع من الرسائل وادق مسلكا من جميع اصناف المحاورات ولذلك قالوا له صلى الله عليه وسلم هو شاعر أو ساحر وسول اليك الشيطان ان الشعر ابلغ واعجب وارق وابرع واحسن الكلام وابدع فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين * اسمعت افضل من رأيت من اهل العلم بالادب والحذق بهذه الصناعة مع تقدمه في الكلام

يقول ان الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة مالا يتأتى فى الشعر لان الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على سننه وحضره من يتقدم فى صنعة الكلام فراجعه فى ذلك وذكر انه لا يمتنع ان يكون الشعر أبلغ اذا صادف شروط الفصاحة وأبدع اذا تضمن أسباب البلاغة ويشهد عندى للقول الاخير ان معظم براعة كلام العرب فى الشعر ولا نجد فى منثور قولهم ما نجد فى منظومه وان كان قد أحدثت البراعة فى الرسائل على حد لم يعهد فى سالف أيام العرب ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم وهو وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه ونواحيه فهو اذا تهذب فى بابه ووفى له جميع أسبابه لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب وقد حكى عن المتنبى انه كان ينظر فى المصحف فدخل اليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده فقال له هذا المكى على فصاحته كان مفحما فان صحت هذه الحكاية عنه فى الحاده عرف بها انه كان يعتقد ان الفصاحة فى قول الشعر أبلغ واذا كانت الفصاحة فى قول الشعر أولم تكن وبينا ان نظم القرآن يزيد فى فصاحته على كل نظم ويتقدم فى بلاغته على كل قول بما يتضح به الامر اتضاح الشمس ويتبين به بيان الصبح وقفت على جلية هذا الشأن فانظر فيما نعرضه عليك ما نعرضه ونصوره بفهمك ما نصوره ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن وتأمل ما نرتبه ينكشف لك الحق واذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك فمن سبيلنا ان نعمد الى قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها وجودة بلاغتها ومعانيها واجماعهم على ابداع صاحبها فيها مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة والمهر وفين الحذق فى البراعة فنوقفك على مواضع خللها وعلى تفاوت نظمها وعلى اختلاف فصولها وعلى كثرة فضولها وعلى شدة تعسفها وبعض تكلفها وما نجمع من كلام رفيع يقرن بينه وبين كلام وضيع وبين لفظ سوقى يقرن بلفظ ملوكى وغير ذلك من الوجوه التى يجىء تفصيلها وتبين ترتيبها وتنزيلها ● فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم انه قرآن فهو أخس من ان نشتغل به وأسخف من ان نفكر فيه وانما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر فانه على سخافته قد أضل وعلى ركاكته قد أذل وميدان الجهل واسع ومن نظر فيما نقلناه عنه وفهم موضع جهله كان جديرا ان يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم فمما كان يزعم انه نزل عليه من السماء والليل الاطخم والذئب الادلم والجذع الازلم ما انتهكت أسيد من محرم وذلك قد ذكر فى خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه وقال أيضا والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس وكان يقول والشاء وألوانها وأعجبها السود وألبانها والشاة السوداء واللبن الابيض انه لعجب محض وقد حرم المذق فما لكم

Digitized by Google

لا تجتمعون * وكان يقول ضفدع بنت ضفدعين نقي ماتنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون وكان يقول والمبديات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما اهالة وسمنا لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ريفكم نامنعوه والمعترفا آووه والباغي فناووه وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان وكانت تتنبأ فاجتمع مسيلمة معها فقالت له ماأوحى اليك فقال الم تر كيف فعل ربك بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا وقالت فما بعد ذلك قال أوحى الي ان الله خلق النساء أفواجا وجعل الرجال لهن أزواجا فنولج فيهن قعسا ايلاجا ثم نخرجها اذا شئنا اخراجا فينتجن لنا سخالا انتاجا قالت أشهد انك نبي ولم تنقل كل ماذكر من سخفه كراهية التثقيل وروى انه سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن هذه الالفاظ فحكوا بعض ماقلناه فقال أبو بكر سبحان الله ويحكم ان هذا الكلام لم يخرج عن آل فأين كان يذهب بكم ومعنى قوله لم يخرج عن آل أي عن ربوبية ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام فنرجع الآن الى ماضمناه من الكلام على الاشعار المتفق على جودتها وتقدم أصحابها في صناعتهم ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب وتباعد مواقع البلاغة وتستدل على مواضع البراعة وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته وتعلم انه قد أبدع في طرق الشعر أمورا اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى مايتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والنميج الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح وقد ترى الادباء اذا لا يوازنون بشعره فلانا وفلانا ويضمون أشعارهم الى شعره حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة وامور بديعة وربما فضلوهم عليه أو سووا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمهم عليه وبروزه بين أيديهم ولما اختاروا قصيدته في السبعيات أضافوا اليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ثم تراهم يقولون لفلان لامية مثلها ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق الى معارضته وتساويه في طريقته وربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة وتقدمت عليه في أسباب عجيبة واذا جاؤا الى تعداد محاسن شعره كان أمرا محصورا وشيأ معروفا أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه وتنظر الى المحدثين كيف توغلوا الى حيازة المحاسن منهم من جمع رصانة الكلام الى سلاسته

ومتانته الى عذوبته والاصابة فى معناه الى تحسين بهجته حتى ان منهم من ان قصر عنه فى بعض تقدم عليه فى بعض لان الجنس الذى يرمون اليه والغرض الذى يتواردون عليه مما للآدمى فيه مجال وللبشرى فيه مثال فكل يضرب فيه بسهم ويفوز فيه بقدح ثم قد تتفاوت السهام تفاوتا وتتباين تباينا وقد تتقارب تقاربا على حسب مشاركتهم فى الصنائع ومساهمتهم فى الحرف ونظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير متخلص فاذا شئت ان تعرف عظم شأنه فتأمل ما نقوله فى هذا الفصل لامرئ القيس فى اجود أشعاره وما نبين لك من عواره على التفصيل وذلك قوله

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمأل

الذين يتعصبون له ويدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لانه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجع واسترجع كله فى بيت ونحو ذلك وانما بيناه هذا لئلا يقع للآذهان عنا عن مواضع المحاسن ان كانت ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله أنت تعلم انه ليس فى البيتين شئ قد سبق فى ميدانه شاعرا ولا تقدم به صانعا وفى لفظه ومعناه خلل فأول ذلك انه استوقف من يبكى لذكر الحبيب وذكراه لا يقتضى بكاء الخلى وانما يصح طلب الاسعاد فى مثل هذا على ان يبكى لبكائه ويرق لصديقه فى شدة برحائه فأما ان يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال فان كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لانه من السخف ان لا يغار على حبيبه وان يدعو غيره الى التغازل عليه والتواجد معه فيه ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الاماكن من الدخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى وقد كان يكفيه ان يذكر فى التعريف بعض هذا وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضربا من الهى ثم ان قوله لم يعف رسمها اذ كر الاصمعى من محاسنه انه باق فنحن نحزن على مشاهدته فاوعفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى لانه ان كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم الا جدة عهد وشدة وجد وانما قرع له الاصمعى الى افادته هذه الفائدة خشية ان يعاب عليه فيقال أى فائدة لان يعرفنا انه لم يعف رسم منازل حبيبه وأى معنى لهذا الحشو فذكر ما يمكن ان يذكر ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل ثم فى هذه الكلمة خلل آخر لانه عقب البيت بأن قال فهل عند رسم دارس من معول فذكر أبو عبيدة انه رجع فأكذب نفسه كما قال زهير

وقف بالديار التى لم يعفها القدم * بلى وغيرها الارواح والديم

وقال غيره أراد بالبيت الاول انه لم ينطمس أثره كله و بالثانى انه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكلامان وليس فى هذا انتصار لان معنى عفا ودرس واحد فاذا قال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا فهو تناقض لا محالة واعتذار أبى عبيدة أقرب لو صح ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير فهو الى الخلل أقرب وقوله لما نسجتها كان ينبغى ان يقول لما تسجها ولكنه تعسف فجعل ما فى تأويل التأنيث لانها فى معنى الريح والأولى انتذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف وقوله لم يعف رسمها كان الاولى ان يقول لم يعف رسمه لانه ذكر المنزل فان كان رد ذلك الى هذه البقاع والاماكن التى المنزل واقع بينها فذلك خلل لانه انما يريد صفة المنزل الذى نزله حبيبه بعفائه أو بأنه لم يعف دون ما جاوره وان أراد بالمنزل الدار حتى أنث فذلك أيضا خلل ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية التطويل لم نشك فى ان شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين بل يزيد عليهما و يفضلهما ثم قال

وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وان شفائى عبرة مهراقة * فهل عند رسم دارس من معوّل

وليس فى البيتين أيضا معنى بديع ولا لفظ حسن كالاولين والبيت الاول منهما متعلق بقوله قفا نبك فكأنه قال قفا وقوف صحبى بها علىّ مطيهم أو قفا حال وقوف صحبى وقوله بها متأخر فى المعنى وان تقدم فى اللفظ ففى ذلك تكلف وخروج من اعتدال الكلام والبيت الثانى محتمل من جهة انه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافيا كافيا فما حاجته بعد ذلك الى طلب حيلة اخرى وتجمل ومعوّل عند الرسوم ولو أراد ان يحسن الكلام لوجب ان يدخل على ان الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ثم يسائل هل عند الربع من حيلة اخرى وقوله

كدأبك من أم الخويرث قبلها * وجارتها أم الرباب بمأسل
اذا قامتا تضوع المسك منهما * نسيم الصبا يأتى بريا القرنفل

أنت لا تشك فى ان البيت الاول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وان كان منزوع المعنى وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله اذا قامتا تضوع المسك منهما ولو أراد ان يجود أفاد ان بهما طيبا على كل حال فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير ثم فيه خلل آخر لانه بعد ان شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل وذكر ذلك بعد ذكر المسك ناقص وقوله نسيم الصبا فى تقدير المنقطع عن المصراع الاول لم يصله به وصل مثله وقوله

ففاضت دموع العين منى صبابة * على النحر حتى بل دمعى محملى
ألا رب يوم لك منهن صالح * ولا سيما يوم بدارة جلجل

قوله ففاضت دموع العين ثم استعانته بقوله منى استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة وهو حشو غير مليح ولا بديع وقوله على النحر حشو آخر لان قوله بل دمعى محملى يغنى عنه ويدل عليه وليس بحشو حسن ثم قوله حتى بل دمعى محملى اعادة ذكره الدمع حشو آخر وكان يكفيه ان يقول حتى بلت محملى فاحتاج لاقامة الوزن الى هذا كله ثم تقديره انه قد أفرط فى افاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير ولو كان أبدع لكان يقول حتى بل دمعى مغانيهم وعراصهم ويشبه ان يكون غرضه اقامة الوزن والقافية اذ الدمع يبعد ان يبل المحمل وانما يقطر من الواقف والقاعد على الارض أو على الذيل وان بله فلقلته وانه لا يقطر وأنت تجد فى شعر الخيزرزى ماهو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه والبيت الثانى خال من المحاسن والبديع خلو من المعنى وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع من طبائع السوقة فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب وقال

ويوم عقرت للعذارى مطيتى * فيا عجبا من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها * وشحم كهداب الدمقس المفتل

تقديره اذكر يوم عقرت مطيتى أو يرده على قوله يوم بدارة جلجل وليس فى المصراع الاول من هذا البيت الا سفاهته قال بعض الادباء قوله يا عجبا يعجبهم من سفهه فى شبابه من نحره ناقته لهم وانما أراد ان لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعا عن الاول وأراد ان يكون الكلام ملائما له وهذا الذى ذكره بعيد وهو منقطع عن الاول وظاهره انه يتعجب من تحمل العذارى رحله وليس فى هذا تعجب كبير ولا فى نحر الناقة لهن تعجب وان كان يعنى به انهن حملن رحله وان بعضهن حملته فعبر عن نفسه برحله فهذا قليل لا يشبه ان يكون عجبا لكن الكلام لا يدل عليه ويتجافى عنه ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شئ غريب ولا معنى بديع أكثر من سفاهته مع قلة معناه وتقارب أمره ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا والى هذا الموضع لم ير له بيت رائع وكلام رائق وأما البيت الثانى فيعدونه حسنا ويعدون التشبيه مليحا واقعا وفيه شئ وذلك انه عرف اللحم ونكر الشحم فلا يعلم انه وصف شحمها وذكر تشبيه أحدهما بشئ واقع وعجز عن تشبيه القسمة الاولى فبرت مرسلة وهذا نقص فى الصنعة وعجز عن اعطاء الكلام حقه وفيه شئ آخر من جهة المعنى وهو انه وصف طعامه الذى اطعم من اضاف بالجودة وهذا قد يعاب وقد يقال ان العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبا وانما الفرس هم الذين يرون هذا عيبا شنيعا واما تشبيه الشحم بالدمقس فشئ يقع للعامة ويجرى على ألسنتهم فليس بشئ قد سبق اليه وانما زاد المغتل للقافية وهذا مفيد ومع ذلك فلست اعلم العامة تذكر هذه الزيادة ولم يعد اهل الصنعة ذلك من البديع ورأوه

قريبا وفيه شئ آخر وهو ان تجمعه بما اطم للاحباب مذموم وان سوغ التجميع بما اطم للاضياف الا ان يورد الكلام مورد المجون وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة وقوله ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة * فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معا * عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

قوله دخلت الخدر خدر عنيزة ذكر تكريرا لاقامة الوزن لا فائدة فيه غير ولا ملاحة له ولا رونق وقوله في المصراع الاخير من هذا البيت فقالت لك الويلات انك مرجلي كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته الى شعره وليس فيه غير هذا وتكريره بعد ذلك تقول وقد مال الغبيط يعني قتب الهودج بعد قوله فقالت لك الويلات انك مرجلي لا فائدة فيه غير تقدير الوزن والا فحكاية قولها الاول كاف وهو في النظم قبيح لانه ذكر مرة فقالت ومرة تقول في معنى واحد وفصل خفيف وفي مصراع الثاني أيضا تأنيث من كلامهن وذكر أبو عبيدة انه قال عقرت بعيري ولم يقل ناقتي لانهم يحملون النساء على ذكور الابل لانها أقوى وفيه نظر لان الاظهر ان البعير اسم للذكر والانثى واحتاج الى ذكر البعير لاقامة الوزن وقوله

فقلت لها سيري وأرخي زمامه * ولا تبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع * فألهيتها عن ذي تمائم مغيل

البيت الاول قريب النسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف كأنه من عبارات المخطئين في الصنعة وقوله فمثلك حبلى قد طرقت عابه عليه أهل العربية ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام فرب مثلك حبلى قد طرقت وتقديره انه زير نساء وانه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن لان الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار والتهام وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الاول لان تقديره لا تبعديني عن نفسك فاني أغلب النساء وأخدعهن عن رأيهن وأفسدهن بالتغازل وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن وتركه ابعادهن اياه بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش وركوبه كل مركب فاسد وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره وكقوله

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشق وتحتي شقها لم يحول

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت * علي وآلت حلفة لم تحلل

فالبيت الاول غاية في الفحش ونهاية في السخف وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد ان هذا ليبغضه كل من سمع كلامه

ويوجب له المقت وهو لو صدق لكان قبيحا فكيف ويجوز ان يكون كاذبا ثم ليس فى البيت لفظ بديع ولا معنى حسن وهذا البيت متصل بالبيت الذى قبله من ذكر المرضع التى لها ولد محمول فأما البيت الثانى وهو قوله ويوما يتجب منه واما تشددت وتعسرت عليه وحلفت عليه فيوكلام ردىء النسج لا فائدة لذكره لما ان حبيبته تمنعت عليه يوما وضع يسميه ويصفه وأنت تجد فى شعر المحدثين من هذا الجنس فى التغزل ما يذرب معه اللب وتطرب عليه النفس وهذا مما تستنكره النفس ويشمئز منه القلب وليس فيه شئ من الاحسان والحسن وقوله

أما طم مهلا بعض هذا التدلل ✶ وان كنت قد أزمعت صرمى فاجملى
أغرك منى ان حبك قاتلى ✶ وانك مهما تأمرى القلب يفعل

فالبيت الاول فيه ركاكة جدا وتأنيث ورقة ولكن فيها تخنيث ولعل قائلا يقول ان كلام النساء مما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل وليس كذلك لانك تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم والمصراع الثانى منقطع عن الاول لا يلائمه ولا يوافقه وهذا بين لك اذا اعترضت معه البيت الذى تقدمه وكيف ينكر عليها تدللها والتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله والبيت الثانى قد عيب عليه لانه قد أخبر ان من سبيلها ان لا تغتر بما يريها من ان حبها يقتله وأنها تملك قلبه فما أسرته فوله والمحب اذا أخبر عن مثل هذا صدق وان كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه وانما ذهب مذهبا آخر وهو انه أراد ان يظهر التجلد فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الابيات من الحب والبكاء على الاحبة فقد دخل فى وجه آخر من المناقضة والاحالة فى الكلام ثم قوله تأمرى القلب يفعل معناه تأمرينى والقلب لا يؤمر والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة وقوله

فان كنت قد ساءتك منى خليقة ✶ فسلى ثيابى عن ثيابك تنسلى
وما ذرفت عيناك الا لتضربى ✶ بسهميك فى أعشار قلب مقتل

البيت الاول قد تميل فى تأويله انه ذكر الثوب وأراد البدن مثل قول الله تعالى وثيابك فطهر وقال أبو عبيد هذا مثل للهجر والتسلى بين وهو بيت قليل المعنى ركيكه وضيعه وكل ما أضاف الى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف يوجب قطعه فلم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصى من وصله وانه مهذب الاخلاق شريف الشمائل فذلك يوجب ان لا ينفك من وصاله والاستعارة فى المصراع الثانى فيها تواضع وتقارب وان كانت غريبة وأما البيت الثانى فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها ومعناه ما بكيت الا لتجرحى قلبا معشرا اى مكسرا من قولهم

رمة اعشار اذا كانت قطعا هذا تأويل ذكره الاصمعي رضي الله عنه وهو أشبه عند أكثرهم وقال غيره وهذا مثل للاعشار التي تقسم الجزور عليها ويعني بسهميك المعلى وله سبعة انصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء فأراد انك ذهبت بقلبي أجمع ويعني بقوله مقتل مذلل وأنت تعلم انه على ما يعني به فهو غير موافق للابيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بيناه ويشبه ان يكون من قال بالتأويل الثاني فزع اليه لانه رأى اللفظ مستكرها على المعنى الاول لان القائل اذا قال ضرب فلان بسهمه في الهدف يعني أصابه كان كلاما ساقطا مرذولا وهو يرى ان معنى الكلمة ان عينها كالسهم بين الناظرين في اصابة قلبه المجروح فلما بكاؤه ذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ ولكنه اذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل لانه ان كان محتاجا على ما وصف به نفسه من الصبابة فقلبه كله لها فكيف يكون بكاؤها هو الذي يخلص قلبه لها واعلم بعد هذا ان البيت غير ملائم للبيت الاول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لانه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتا وكان بديعا ولا عيب فيه فليس بعجيب لانه لا يدعى على مثله ان كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين وانما يكفي ان نبين ان ما سبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن ان يقال انه يتقدم فيه أحد من المتأخرين فضلا عن المتقدمين وانما قدم في شعره لابيات قد برع فيها وبان حذقه بها وانما أنكرنا ان يكون شعره متناسبا في الجودة ومتشابها في صحة المعنى واللفظ وقلنا انه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربيه كالمهمل مستنكرة وبين كلام سليم متوسط وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى وبين حكمة حسنة وبين سخف مستشنع ولهذا قال الله عز اسمه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فأما قوله

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ✱ تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراسا اليها ومعشرا ✱ على حراصا لو يسرون مقتلي

فقد قالوا عني بذلك انها كبيضة خدر في صفائها ورقتها وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق اليها بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر ويعني بقوله غير معجل انه ليس ذلك مما يتفق قليلا وأحيانا بل يتكرر له الاستمتاع بها وقد يحمله غيره على انه رابط الجاش فلا يستعجل اذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها وليس في البيت كبير فائدة لانه الذي حكى في سائر أبياته فلا تتضمن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها فتكريره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى الا الزيادة التي ذكر من منعتها وهو مع ذلك بيت سليم اللفظ في المصراع الاول دون الثاني

والبيت الثانى ضعيف وقوله لو يسرون مقتلى أرادان يقول لو أسروا فاذا نقله الى هذا ضعف ووقع فى مضمار الضرورة والاختلال على نظمه بين حتى ان المحترز يحترز من مثله وقوله اذاما الثريا فى السماء تعرضت * تعرض أثناء الوشاح المفصل

قد أنكر عليه قوم قوله اذاما الثريا فى السماء تعرضت وقالوا الثريا لا تتعرض حتى قال بعضهم سمى الثريا وانما أراد الجوزاء لانها تعرض والعرب تفعل ذلك كما قال زهير كأحمر عاد وانما هو أحمر ثمود وقال بعضهم فى تصحيح قوله تعرض أول ما تطلع كما ان الوشاح اذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته وهذا كقول الشاعر

تعرضت لى بمجان خل * تعرض المهرة فى الطول

يقول تريك عرضها وهى فى الرسن وقال أبو عمر ويعنى اذا أخذت الثريا فى وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة والاشبه عندنا ان البيت غير معيب من حيث عابوه به وانه من محاسن هذه القصيدة ولولا أبيات عدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ويستولى على الامد أنت تعلم انه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين فى وصف شئ من النجوم مثل ما فى وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن فاما ان يكون قد عارضه أو زاد عليه فمن ذلك قول ذى الرمة

وردت اعتسافا والثريا كأنها * على قمة الرأس ابن ماء محلق

ومن ذلك قول ابن المعتز

وترى الثريا فى السماء كأنها * بيضات ادحى يلحن بفدفد

وكقوله كأن الثريا فى أواخر ليلها * تفتح نورا أو لجام مفضض

وقوله أيضا فناولنيها والثريا كأنها * جنى نرجس حيا الندامى به الساقى

وقول الاشهب بن رميلة

ولاحت لساريها الثريا كأنها * لدى الافق الغربى قرط مسلسل

ولابن المعتز

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه * كذات قرط أرادته وقد سقطا

أخذه من ابن الرومى فى قوله

طيب ريقه اذا ذقت فاه * والثريا بجانب الغرب قرط

ولابن المعتز قد سقانى المدام والصبح بالليل مؤتزر

والثريا كنور غصن * على الارض قد نثر

وقوله ونروم الثريا فى السماء مراما * كانكباب طمر كاد يلقى لجاما

Digitized by Google

الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن حال قس بن ساعدة فقالوا قال قس

يا ناعي الموت والاموات في جدث * عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فان لهم يوما يصاح بهم * كما ينبه من نوماته الصعق
منهم عراة ومنهم في ثيابهم * منها الجديد ومنها الاورق الخلق

مطر ونبات وآباء وامهات وذاهب وآت وآيات في اثر آيات واموات بعد اموات ضوء وظلام وليال وايام وغني وفقير وشقي وسعيد ومحسن ومسيئ أين الارباب الفعلة ليصلحن كل عامل عمله كلا بل هو الله واحد ليس بمولود ولا والد عاد وابدى واليه المآب غدا امابعد يامعشر اياد اين ثمود وعاد واين الآباء والاجداد اين الحسن الذي لم يشكر اين الظلم الذي لم ينتقم كلا ورب الكعبة ليعودن مابدا ولئن ذهب يوم ليعودن يوم قال وهو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن اياد بن نزار اول من آمن بالبعث من اهل الجاهلية واول من توكأ على عصا واول من تكلم بأما بعد

خطبة لأبي طالب

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس وان محمد بن عبد الله بن اخي لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به بركة وفضلا وعدلا ومجدا ونبلا وان كان في المال مقلا فان المال عارية مسترجعة وظل زائل وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما اردتم من الصداق فعلي * قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الاول ومحاوراتهم وخطبهم واحلتك فيما لم انسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن فتأمل ذلك وسائر ماهو مسطر من الاخبار المأثورة عن السلف واهل البيان واللسان والفصاحة والفطن والالفاظ المنثورة والمخاطبات الدائرة بينهم والامثال المنقولة عنهم ثم انظر بسكون طائر وخفض جناح وتفريغ لب وجمع عقل في ذلك فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين وتعلم ان نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين وتعلم الحذ الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة فان خيل اليك أو شبه عليك وظننت انه يحتاج ان يوازن بين نظم الشعر والقرآن لان الشعر افصح من الخطب وابرع من الرسائل وادق مسلكا من جميع اصناف المحاورات ولذلك قالوا له صلى الله عليه وسلم هو شاعر أو ساحر وسول اليك الشيطان ان الشعر ابلغ واعجب وارق وابرع واحسن الكلام وابدع فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين * اسمعت افضل من رأيت من اهل العلم بالادب والحذق بهذه الصناعة مع تقدمه في الكلام

يقول ان الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة مالا يتأتى فى الشعر لان الشعر يضيق نطاق الكلام و يمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على سننه وحضره من يتقدم فى صنعة الكلام فراجعه فى ذلك وذكر انه لا يمتنع ان يكون الشعر أبلغ اذا صادف شروط الفصاحة وأبدع اذا تضمن أسباب البلاغة ويشهد عندى للقول الاخير ان معظم براعة كلام العرب فى الشعر ولا نجد فى منثور قولهم مانجد فى منظومه وان كان قد أحدثت البراعة فى الرسائل على حد لم يعهد فى سالف أيام العرب ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم وهو وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه و يضم أطرافه ونواحيه فهو اذا تهذب فى بابه و وفى له جميع أسبابه لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب وقد حكى عن المتنبى انه كان ينظر فى المصحف فدخل اليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده فقال له هذا المكى على فصاحته كان مفحما فان صحت هذه الحكاية عنه فى الحاده عرف بها انه كان يعتقد ان الفصاحة فى قول الشعر أبلغ واذا كانت الفصاحة فى قول الشعر أولم تكن و بينا ان نظم القرآن يزيد فى فصاحته على كل نظم و يتقدم فى بلاغته على كل قول بما يتضح به الامر اتضاح الشمس و يتبين به بيان الصبح وقفت على جلية هذا الشأن فانظر فيما نعرضه عليك مانعرضه وتصور بفهمك مانصوره ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن وتأمل مارتبته ينكشف لك الحق واذا أردنا تحقيق ماضمناه لك فمن سبيلنا ان نعمد الى قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها وجودة بلاغتها ومعانيها واجماعهم على ابداع صاحبها فيها مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة والمعروفين بالحذق فى البراعة فنوقفك على مواضع خللها وعلى تفاوت نظمها وعلى اختلاف فصولها وعلى كثرة فضولها وعلى شدة تعسفها و بعض تكلفها وما نجمع من كلام رفيع يقرن بدنه و بين كلام وضيع و بين لفظ سوقى يقرن بلفظ ملوكى ونغير ذلك من الوجوه التى يجىء تفصيلها و نبين ترتيبها وتنزيلها ● فأما كلام مسيلمة الكذاب ومازعم انه قرآن فهو أخس من ان نشتغل به وأسخف من ان نتكلف فيه وانما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر فانه على سخافته قد أضل وعلى ركاكته قد أذل وميدان الجهل واسع ومن نظر فيما نقلناه عنه وفهم وضع جهله كان جديرا ان يحمد الله على مارزقه من فهم وآتاه من علم فمما كان يزعم انه نزل عليه من السماء والليل الاطخم والذئب الادلم والجذع الازلم ما انتهكت أسيد من محرم وذلك قد ذكر فى خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه وقال أيضا والليل الدامس والذئب الهامس ماقطعت أسيد من رطب ولا يابس وكان يقول والشاء وألوانها وأعجبها السود وألبانها والشاة السوداء واللبن الابيض انه لمجب محض وقد حرم المذق فمالكم

Digitized by Google

لا يجتمعون * وكان يقول ضفدع بنت ضفدعين نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون وكان يقول والمبديات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما اهالة وسمنا لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ريفكم نامنعوه والمعترفا آووه والباغي فاووه وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان وكانت تنبأ فاجتمع مسيلمة معها فقالت له ما أوحي اليك فقال ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا وقالت فما بعد ذلك قال أوحي الي ان الله خلق النساء أفواجا وجعل الرجال لهن أزواجا فنولج فيهن قعسا ايلاجا ثم نخرجها اذا شئنا اخراجا فينتجن لنا سخالا انتاجا قالت أشهد انك نبي ولنتقل كل ما ذكر من سخفه كراهية التثقيل وروى انه سأل أبو بكر الصديق رضى الله عنه أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن هذه الالفاظ فحكوا بعض ما قلناه فقال أبو بكر سبحان الله ويحكم ان هذا الكلام لم يخرج عن آل فأين كان يذهب بكم ومعنى قوله لم يخرج عن آل أي عن ربوبية ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام فنرجع الآن الى ما ضمناه من الكلام على الاشعار المتفق على جودتها وتقدم أصحابها في صناعتهم ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب وتباعد مواقع البلاغة وتستدل على مواضع البراعة وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته وتعلم انه قد أبدع في طرق الشعر أمورا اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والنميج الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح وقد ترى الادباء اولا يوازنون بشعره فلانا وفلانا ويضمون أشعارهم الى شعره حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة وامور بديعة وربما فضلوهم عليه أو سووا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمهم عليه وبروزه بين أيديهم ولما اختاروا قصيدته في السبعيات أضافوا اليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ثم تراهم يقولون لفلان لامية مثلها ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق الى معارضته وتساويه في طريقته وربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة وتقدمت عليه في أسباب عجيبة واذا جاؤا الى تعداد محاسن شعره كان أمرا محصورا وشيأ معروفا أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه وتنظر الى المحدثين كيف توغلوا الى حيازة المحاسن منهم من جمع رصانة الكلام الى سلاسته

ومتانته الى عذوبته والاصابة فى معناه الى تحسين بهجته حتى ان منهم من ان قصر عنه فى بعض تقدم عليه فى بعض لان الجنس الذى يرمون اليه والغرض الذى يتواردون عليه مما للآدمى فيه مجال وللبشرى فيه مثال فكل يضرب فيه بسهم ويفوز فيه بقدح ثم قد تتفاوت السهام تفاوتا وتتباين تباينا وقد تتقارب تقاربا على حسب مشاركتهم فى الصنائع ومساهمتهم فى الحرف ونظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير متخلص فاذا شئت ان تعرف عظم شأنه فتأمل ما نقوله فى هذا الفصل لامرئ القيس فى اجود أشعاره ومانبين لك من عواره على التفصيل وذلك قوله

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمأل

الذين يتعصبون له ويدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لانه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجع واسترجع كله فى بيت ونحو ذلك وانما بيناه هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ان كانت ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله أنت تعلم انه ليس فى البيتين شئ قد سبق فى ميدانه شاعرا ولا تقدم به صانعا وفى لفظه ومعناه خلل فأول ذلك انه استوقف من يبكى لذكر الحبيب وذكراه لا يقتضى بكاء الخلى وانما يصح طلب الاسعاد فى مثل هذا على ان يبكى لبكائه ويرق لصديقه فى شدة برحائه فأما ان يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال فان كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لانه من السخف ان لا يغار على حبيبه وان يدعو غيره الى التغازل عليه والتواجد معه فيه ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الاماكن من الدخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى وقد كان يكفيه ان يذكر فى التعريف بعض هذا وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضربا من العى ثم ان قوله لم يعف رسمها ذكر الاصمعى من محاسنه انه باق فنحن نحزن على مشاهدته فاو عفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى لانه ان كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم الا جدة عهد وشدة وجد وانما قرع له الاصمعى الى افادته هذه الفائدة خشية ان يعاب عليه فيقال أى فائدة لان يعرفنا انه لم يعف رسم منازل حبيبه وأى معنى لهذا الحشو فذكر ما يمكن ان يذكر ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل ثم فى هذه الكلمة خلل آخر لانه عقب البيت بأن قال فهل عند رسم دارس من معول فذكر أبو عبيدة انه رجع فأكذب نفسه كما قال زهير

قف بالديار التى لم يعفها القدم * نعم وغيرها الارواح والديم

وقال غيره أراد بالبيت الاول انه لم يطمس أثره كله وبالثانى انه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكلام ان وليس فى هذا انتصار لان معنى عفا ودرس واحد فاذا قال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا فهو تناقض لا محالة واعتذار أبى عبيدة أقرب لو صح ولكن لم يرد هذا القول ورد الاستدراك كما قاله زهير فهو الى الخلل أقرب وقوله لما نسجتها كان ينبغى ان يقول لما تسجها ولكنه تعسف فجعل ما فى تأويل التأنيث لانها فى معنى الريح والاولى التذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف وقوله لم يعف رسمها كان الاولى ان يقول لم يعف رسمه لانه ذكر المنزل فان كان رد ذلك الى هذه البقاع والاماكن التى المنزل واقع بينها فذلك خلل لانه انما يريد صفة المنزل الذى نزله حبيبه بعفائه أو بأنه لم يعف دون ما جاوره وان أراد بالمنزل الدار حتى أنث فذلك أيضا خلل ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية التطويل لم نشك فى ان شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين بل يزيد عليهما ويفضلهما ثم قال

وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وان شفائى عبرة مهراقة * فهل عند رسم دارس من معوّل

وليس فى البيتين أيضا معنى بديع ولا لفظ حسن كالاولين والبيت الاول منهما متعلق بقوله ففاضت فكأنه قال فقاوقوف صحبى بها علىّ مطيهم أو قفا حال وقوفى صحبى وقوله بها متأخر فى المعنى وان تقدم فى اللفظ ففى ذلك تكلف وخروج من اعتدال الكلام والبيت الثانى محتمل من جهة انه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافيا كافيا فما حاجته بعد ذلك الى طلب حيلة اخرى وتجمل ومعوّل عند الرسوم ولو أراد ان يحسن الكلام لوجب ان يدخل على ان الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ثم يسائل هل عند الربع من حيلة اخرى وقوله

كدأبك من أم الخويرث قبلها * وجارتها أم الرباب بمأسل
اذا قامتا تضوع المسك منهما * نسيم الصبا يأتى بريا القرنفل

أنت لا تشك فى ان البيت الاول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وان كان منزوع المعنى وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله اذا قامتا تضوع المسك منهما ولو أراد ان يجود أفاد ان بهما طيبا على كل حال فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير ثم فيه خلل آخر لانه بعد ان شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص وقوله نسيم الصبا فى تقدير المنقطع عن المصراع الاول لم يصله به وصل مثله وقوله

ففاضت دموع العين منى صبابة * على النحر حتى بل دمعى محملى
ألا رب يوم لك منهن صالح * ولا سيما يوم بدارة جلجل

قوله ففاضت دموع العين ثم استعانته بقوله منى استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة وهو حشو غير مليح ولا بديع وقوله على النحر حشو آخر لان قوله بل دمعى محملى يغنى عنه ويدل عليه وليس بحشو حسن ثم قوله حتى بل دمعى محملى اعادة ذكره الدمع حشو آخر وكان يكفيه ان يقول حتى بلت محملى فاحتاج لاقامة الوزن الى هذا كله ثم تقديره انه قد أفرط فى افاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير ولو كان أبدع لكان يقول حتى بل دمعى مغانبهم وعراصهم ويشبه ان يكون غرضه اقامة الوزن والقافية اذ الدمع يبعد ان يبل المحمل وانما يقطر من الواقف والقاعد على الارض أو على الذيل وان بله فلقلته وانه لا يقطر وأنت تجد فى شعر الخيزرزى ماهو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه والبيت الثانى خال من المحاسن والبديع خلو من المعنى وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع من طبائع السوقة فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب وقال

ويوم عقرت للعذارى مطيتى * فيا عجبا من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها * وشحم كهداب الدمقس المفتل

تقديره اذكر يوم عقرت مطيتى أو يرده على قوله يوم بدارة جلجل وليس فى المصراع الاول من هذا البيت الا سفاهته قال بعض الادباء قوله يا عجبا يعجبهم من سفهه فى شبابه من نحره ناقته لهم وانما أراد ان لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعا عن الاول وأراد ان يكون الكلام ملائما له وهذا الذى ذكره بعيد وهو منقطع عن الاول وظاهره انه يتعجب من تحمل العذارى رحله وليس فى هذا تعجب كبير ولا فى نحر الناقة لهن تعجب وان كان يعنى به انهن حملن رحله وان بعضهن حملته فعبر عن نفسه برحله فهذا قليل يشبه ان يكون عجبا لكن الكلام لا يدل عليه ويتجافى عنه ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شئ غريب ولا معنى بديع أكثر من سفاهته مع قلة معناه وتقارب أمره ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا والى هذا الوضع لم ير له بيت رائع وكلام رائق وأما البيت الثانى فيعدونه حسنا ويعدون التشبيه مليحا واقعا وفيه شئ وذلك انه عرف اللحم ونكر الشحم فلا يعلم انه وصف شحمها وذكر تشبيه أحدهما بشئ واقع وعجز عن تشبيه القسمة الاولى فبرت مرسلة وهذا نقص فى الصنعة وعجز عن اعطاء الكلام حقه وفيه شئ آخر من جهة المعنى وهو انه وصف طعامه الذى اطعم من اضاف بالجودة وهذا قد يعاب وقد يقال ان العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبا وانما الفرس هم الذين يرون هذا عيبا شنيعا واما تشبيه الشحم بالدمقس فشئ يقع للعامة ويجرى على ألسنتهم فليس بشئ قد سبق اليه وانما زاد المغتل للقافية وهذا مفيد ومع ذلك فلست اعلم العامة تذكر هذه الزيادة ولم يعد اهل الصنعة ذلك من البديع ورأوه

قريبا وفيه شئ آخر وهو ان تجيعه بما اطعم للاحباب مذموم وان سوغ التجويع بما اطعم للاضياف الا ان يورد الكلام مورد المجون وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة

وقوله ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة * فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معا * عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

قوله دخلت الخدر خدر عنيزة ذكر تكريرا لاقامة الوزن لا عائدة فيه غير ولا ملاحة له ولا رونق وقوله في المصراع الاخير من هذا البيت فقالت لك الويلات انك مرجلي كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته الى شعره وليس فيه غير هذا وتكريره بعد ذلك تقول وقد مال الغبيط يعني قتب الهودج بعد قوله فقالت لك الويلات انك مرجلي لا فائدة فيه غير تقدير الوزن والاحكاية قولها الاول كاف وهو في النظم قبيح لانه ذكر مرة فقالت ومرة تقول في معنى واحد وفصل خفيف وفي مصراع الثاني أيضا تأنيث من كلامهن وذكر أبو عبيدة انه قال عقرت بعيري ولم يقل ناقتي لانهم يحملون النساء على ذكور الابل لانها أقوى وفيه نظر لان الاظهر ان البعير اسم للذكر والانثى واحتاج الى ذكر البعير لاقامة الوزن وقوله

فقلت لها سيري وأرخي زمامه * ولا تبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع * فألهيتها عن ذي تمائم مغيل

البيت الاول قريب النسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف كأنه من عبارات المخطئين في الصنعة وقوله فمثلك حبلى قد طرقت عابه عليه أهل العربية ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام فرب مثلك حبلى قد طرقت وتقديره انه زير نساء وانه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن لان الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار والتهام وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الاول لان تقديره لا تبعديني عن نفسك فاني أغلب النساء وأخدعهن عن رأيهن وأفسدهن بالتغازل وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن وتراك ابعادهن اياه بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش وركوبه كل مركب فاسد وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره وكقوله

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشق وتحتي شقها لم يحول

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت * علي وآلت حلفة لم تحلل

فالبيت الاول غاية في الفحش ونهاية في السخف وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد ان هذا ليبغضه كل من سمع كلامه

ويوجب له المقت وهو لو صدق لكان قبيحا فكيف ويجوز ان يكون كاذبا ثم ليس فى البيت لفظ بديع ولا معنى حسن وهذا البيت متصل بالبيت الذى قبله من ذكر المرضع التى لها ولد محمول فأما البيت الثانى وهو قوله ويوما يتجب منه وانما تشددت وتعسرت عليه وحلفت عليه فيوكلام ردىء النسج لا فائدة لذكره لما ان حبيبته تمنعت عليه يوما وضع يسميه ويصفه وأنت تجد فى شعر المحدثين من هذا الجنس فى التغزل ما يذرب معه اللب وتطرب عليه النفس وهذا مما تستنكره النفس ويشمئز منه القلب وليس فيه شئ من الاحسان والحسن وقوله

أياطم مهلا بعض هذا التدلل ★ وان كنت قد أزمعت صرمى فعاجلى
أغرك منى ان حبك قاتلى ● وانك مهما تأمرى القلب يفعل

فالبيت الاول فيه ركاكة جدا وتأنيث مورقة ولكن فيها تخنيث واهل قائلا يقول ان كلام النساء مما يلائمهن من الطبع أورق وأغزل وليس كذلك لانك تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم والمصراع الثانى منقطع عن الاول لا يلائمه ولا يوافقه وهذا بين لك اذا اعترضت معه البيت الذى تقدمه وكيف ينكر عليها تدللها والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله والبيت الثانى قد عيب عليه لانه قد أخبر ان من سبيلها ان لا تغتر بما يريها من ان حبها يقتله وأنها تملك قلبه فما أسرته فوله والمحب اذا خبر عن مثل هذا صدق وان كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه وانما ذهب مذهبا آخر وهو انه أراد ان يظهر التجلد فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الابيات من الحب والبكاء على الاحبة فقد دخل فى وجه آخر من المناقضة والاحالة فى الكلام ثم قوله تأمرى القلب يفعل معناه تأمرينى والقلب لا يؤمر والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة وقوله

فان كنت قد ساءتك منى خليقة ● فسلى ثيابى عن ثيابك تنسلى
وما ذرفت عيناك الا لتضربى ★ بسهميك فى أعشار قلب مقتل

البيت الاول قد قيل فى تأويله انه ذكر الثوب وأراد البدن مثل قول الله تعالى وثيابك فطهر وقال أبو عبيدة هذا مثل للهجر والتسلى بين وهو بيت قليل المعنى ركيكه وضيعه وكل ما أضاف الى نفسه ووصف به نفسه سقط وسفه وسخف يوجب قطعه فلم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصى من وصله وانه مهذب الاخلاق شريف الشمائل فذلك يوجب ان لا ينفك من وصاله والاستعارة فى المصراع الثانى فيها تواضع وتقارب وان كانت غريبة وأما البيت الثانى فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها ومعناه ما بكيت الا لتجرحى قلبا معشرا اى مكسرا من قولهم

رمة اعشار اذا كانت قطعا هذا تأويل ذكره الاصمعي رضي الله عنه وهو أشبه عند أكثرهم وقال غيره وهذا مثل للاعشار التي تقسم الجزور عليها ويعني بسهميك المعلى وله سبعة انصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء فأراد انك ذهبت بقلبي أجمع ويعني بقوله مقتل مذلل وأنت تعلم انه على ما يعني به فهو غير موافق للابيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بيناه ويشبه ان يكون من قال بالتأويل الثاني فزع اليه لانه رأى اللفظ مستكرها على المعنى الاول لان القائل اذا قال ضرب فلان بسهمه في الهدف يعني أصابه كان كلاما ساقطا مرذولا وهو يرى ان معنى الكلمة ان عينها كالسهمين النافذين في اصابة قلبه المجروح فلما بكاؤه ذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ ولكنه اذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل لانه ان كان محتاجا على ما وصف به نفسه من الصبابة فقلبه كله لها فكيف يكون بكاؤها هو الذي يخلص قلبه لها واعلم بعد هذا ان البيت غير ملائم للبيت الاول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لانه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتا وكان بديعا ولا عيب فيه فليس بعجيب لانه لا يدعى على مثله ان كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين وانما يكفي ان نبين ان ما سبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن ان يقال انه يتقدم فيه أحد من المتأخرين فضلا عن المتقدمين وانما قدم في شعره لابيات قد برع فيها وبان حذقه بها وانما أنكرنا ان يكون شعره متناسبا في الجودة ومتشابها في صحة المعنى واللفظ وقلنا انه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كالهل مستنكرة وبين كلام سليم متوسط وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى وبين حكمة حسنة وبين سخف مستشنع ولهذا قال الله عز اسمه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فأما قوله

وبيضة خدر لا يرام خباؤها * تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراسا اليها ومعشرا * على حراصا لو يسرون مقتلي

فقد قالوا عني بذلك انها كبيضة خدر في صفائها ورقتها وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق اليها بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر ويعني بقوله غير معجل انه ليس ذلك مما يتفق قليلا وأحيانا بل يتكرر له الاستمتاع بها وقد يحمله غيره على انه رابط الجاش فلا يستعجل اذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها وليس في البيت كبير فائدة لانه الذي حكى في سائر أبياته فلا تتضمن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها فتكريره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى الا الزيادة التي ذكر من منعتها وهو مع ذلك بيت سليم اللفظ في المصراع الاول دون الثاني

والبيت الثانى ضعيف وقوله لو يسرون مقتلى أراد ان يقول لو أسروا فاذا نقله الى هذا ضعف ووقع فى مضمار الضرورة والاختلال على نظمه بين حتى ان المحترز يحترز من مثله وقوله اذا ما الثريا فى السماء تعرضت * تعرض أثناء الوشاح المفصل قد أنكر عليه قوم قوله اذا ما الثريا فى السماء تعرضت وقالوا الثريا لا تتعرض حتى قال بعضهم سمى الثريا وانما أراد الجوزاء لانها تعرض والعرب تفعل ذلك كما قال زهير كأحمر عاد وانما هو أحمر ثمود وقال بعضهم فى تصحيح قوله تعرض أول ما تطلع كما ان الوشاح اذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته وهذا كقول الشاعر

تعرضت لى بمجان خل * تعرض المهرة فى الطول

يقول تريك عرضها وهى فى الرسن وقال أبو عمر ويعنى اذا أخذت الثريا فى وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة والاشبه عندنا ان البيت غير معيب من حيث عابوه به وانه من محاسن هذه القصيدة ولو لا أبيات عدة فيه لقابلته ما شئت من شعر غيره ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ويستولى على الامد أنت تعلم انه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين فى وصف شئ من النجوم مثل ما فى وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن فاما ان يكون قد عارضه أو زاد عليه فمن ذلك قول ذى الرمة

وردت اعتسافا والثريا كأنها * على قمة الرأس ابن ماء محلق

ومن ذلك قول ابن المعتز

وترى الثريا فى السماء كأنها * بيضات ادحى يلحن بفدفد

وكقوله كأن الثريا فى أواخر ليلها * تفتح نورا أو لجام مفضض

وقوله أيضا فناولنيها والثريا كأنها * جنى نرجس حيا الندامى به الساقى

وقول الاشهب بن رميلة

ولاحت لساريها الثريا كأنها * لدى الافق الغربى قرط مسلسل

ولابن المعتز

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه * كذات قرط أرادته وقد سقطا

أخذه من ابن الرومى فى قوله

طيب ريقه اذا ذقت فاه * والثريا بجانب الغرب قرط

ولابن المعتز قد سقانى المدام والصبح بالليل مؤتزر

والثريا كنور غصن * على الارض قد نثر

وقوله ونروم الثريا فى السماء مراما * كنكباب طمر كاد يلقى لجاما

Digitized by Google

ولابن الطثرية اذا ما الثريا فى السماء كأنها * جمان وهى من سلكه فتبددا

ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع فى وصف الثريا لطال عليك الكتاب وخرج عن الغرض وانما تريد ان نبين لك ان الابداع فى نحو هذا أمر قريب وليس فيه شئ غريب وفى جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه فى الحسن أو يساويه أو يقاربه فقد علمت ان ما حلق فيه وقدر المتعصب له انه بلغ النهاية فيه أمر مشترك وشريعة مورودة وباب واسع وطريق مسلوك واذا كان هذا بيت القصيدة ودرة القلادة وواسطة العقد وهذا محله فكيف بما تعداه ثم فيه ضرب من التكلف لانه قال اذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض اثناء الوشاح فقوله تعرضت من الكلام الذى يستغنى عنه لانه يشبه اثناء الوشاح سواء كان فى وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب فالتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الالفاظ لا معنى له وفيه ان الثريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله تعرض اثناء الوشاح وانما أراد ان يقول تعرض قطعة من اثناء الوشاح فلم يستقم له اللفظ حتى شبه ما هو كالشئ الواحد بالجمع وقوله

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها * لدى الستر الا لبسة المتفضل

فقالت يمين الله مالك حيلة * وما ان أرى عنك العماية تنجلى

أنظر الى البيت الاول والابيات التى قبله كيف خلط فى النظم وفرط فى التأليف فذكر التمتع بها وذكر الوقت والحال والحراس ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ووصل اليها من نزعها ثيابها الا ثوبا واحدا والمتفضل الذى فى ثوب واحد وهو الفضل فما كان من سبيله ان يقدمه انما ذكره مؤخرا وقوله لدى الستر حشو وليس بحسن ولا بديع وليس فى البيت حسن ولا شئ يفضل لاجله وأما البيت الثانى ففيه تعليق واختلال ذكر الاصمعى ان معنى قوله مالك حيلة أى ليست لك جهة تجئ فيها والناس حوالى والكلام فى المصراع الثانى منقطع عن الاول ونظمه اليه فيه ضرب من التفاوت وقوله

فقمت بها أمشى تجر وراءنا * على اثرنا أذيال مرط مرجل

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى * بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل

البيت الاول من مساعدتها اياه حتى قامت معه ليخلوا وانما كانت تجر على الاثر أذيال مرط مرجل والمرجل ضرب من البرود يقال لوشيه الترجيل وفيه تكلف لانه قال وراءنا على اثرنا ولو قال على اثرنا كان كافيا والذيل انما يجر وراء الماشى فلا فائدة لذكره وراءنا وتقدير القول فقمت أمشى بها وهذا أيضا ضرب من التكلف وقوله أذيال مرط كان من سبيله ان يقول ذيل مرط على انه لو سلم من ذلك كان قريبا ليس مما يفوت بمثله غيره ولا يتقدم به سواه وقول ابن المعتز أحسن منه

فبت أفرش خدى فى الطريق له * ذلا وأسحب أذيالى على الأثر

وأما البيت الثانى فقوله أجزنا بمعنى قطعنا والخبت بطن من الارض والحقف رمل منعرج والعقنقل المنعقد من الرمل الداخل بعضه فى بعض وهذا بيت متقارب مع الابيات المتقدمة لان فيها ماهو سلس قريب يشبه كلام المولدين وكلام البذلة وهذا قد اغرب فيه وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة وليس فى ذكرها والتفضيل بالحاقها بكلامها فائدة والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد اذا وقعت موقع الحاجة فى وصف مايلائمها كقوله عز وجل فى وصف يوم القيامة يوما عبوسا قطريرا فأما اذا وقعت فى غير هذا الموقع فهى مكروهة مذمومة بحسب ماتحمد فى موضعها وروى ان جريرا أنشد بعض خلفاء بنى أمية قصيدته

بان الخليط برامتين فودعوا * أوكلما جدوا لبين تجزع

كيف العزاء ولم أجد مذ بنتم * قلبا يقر ولا شرابا ينفع

قال وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله

وتقول بوزع قد دببت على العصا * هلا هزيت بغيرنا يابوزع

فقال أفسدت شعرك بهذا الاسم وأما قوله

هصرت بغصنى دوحة فتمايلت * على هضيم الكشح ريا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة * ترائبها مصقولة كالسجنجل

فمعنى قوله هصرت جذبت وثنيت وقوله بغصنى دوحة تعسف ولم يكن من سبيله ان يجعلهما اثنين والمصراع الثانى أصح وليس فيه شئ الا مايتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين وأنت تجد ذلك فى وصف كل شاعر ولكنه مع تكرره على الالسن صالح وأما معنى قوله مهفهفة انها مخففة ليست مثقلة والمفاضة التى اضطرب طولها والبيت مع مخالفته فى الطبع الابيات المتقدمة ونزوعه فيه الى الالفاظ المستكرهة ومافيه من الخلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض فليس بطائل ولكنه قريب متوسط وقوله

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى * بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش * اذا هى نصته ولا بمعطل

معنى قوله عن أسيل أى بأسيل وانما يريد خدا ليس بكز وقوله تتقى يقال اتقاه بترسه أى جعله بينه وبينه وقوله تصد وتبدى عن أسيل متفاوت لان الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد وقوله تتقى بناظرة لفظة مليحة ولكن أضافها الى مانظم به كلامه وهو محتمل وهو قوله من وحش وجرة وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا كان من سبيله أن يضيف

Digitized by Google

الى عيون الظبا أو المها دون اطلاق الوحش ففهمن ما تستنكر عيونها وقوله مطفل فسروه على انها ليست بصبية وانها قد استحكمت وهذا اعتذار متعسف وقوله مظفل زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذى ذكره الاصمعى ولكن قد يحتمل عندى ان يفيد غير هذه الفائدة فيقال انها اذا كانت مطفلا لحظت اطفالها بعين رقة ففى نظرها رقة نظر المودة ويقع الكلام معلقا تعليقا متوسطا وأما البيت الثانى فمعنى قوله ليس بفاحش أى ليس بفاحش الطول ومعنى قوله نضته رفعته ومعنى قوله ليس بفاحش فى مدح الاعناق كلام فاحش موضوع منه واذا نظرت فى أشعار العرب رأيت فى وصف الاعناق ما يشبه السحر فكيف وقع على هذه الكلمة ودفع الى هذه اللفظة وهلا قال كقول أبى نواس

مثل الظباء سمت الى رو * ض صوادر عن غدير

ولست أطول عليك فتستثقل ولا أكثر القول فى ذمه فتستوحش وأكلك الآن الى جملة من القول فان كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت وعرفت مارمينا اليه واستغنيت وان كنت عن الطبقة خارجا وعن الاتقان بهذا الشأن خاليا فلا يكفيك البيان وان استقرينا جميع شعره وتتبعنا عامة ألفاظه ودللنا على ما فى كل حرف منه * اعلم أن هذه القصيدة قد تردد بين أبيات سوقية مبتذلة وأبيات متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة وقد دللنا على المبتذل منها ولا يشتبه عليك الوحشى المستنكر الذى يروع السمع ويهول القلب ويكد اللسان ويعبس معناه فى وجه كل خاطر ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر ولا يقع مثله التمدح والتفاصح وهو مجانب لما وضع له أصل الافهام ومخالف لما بنى عليه التفاهم بالكلام فيجب ان يسقط عن الغرض المقصود ويلحق باللغز والاشارات المستبهمة فأما الذى زعموا انه من بديع هذا الشعر فهو قوله

ويحيى فتيت المسك فوق فراشها * نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

والمصراع الاخير عندهم بديع ومعنى ذلك انها مترفة متنعمة لها من يكفيها ومعنى قوله لم تنتطق عن تفضل يقول لم تنتطق وهى فضل وعن هى بمعنى بعد قال أبو عبيدة لم تنتطق فتعمل ولكنها تتفضل ومما يعدونه من محاسنها

وليل كموج البحر أرخى سدوله * على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل * بصبح وما الاصباح منك بأمثل

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة

كليني لهم يا أميمة ناصب * وليل أقاسيه بطى الكواكب

Digitized by Google

وصدر أراح الليل عازب همه * تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تقاعس حتى قلت ليس بمنقض * وليس الذى يتلو النجوم بآيب

وقد جرى ذلك بين يدى بعض الخلفاء فقدمت أبيات امرئ القيس واستحسن استعارتها وقد جعل لليل صدرا يثقل تنحيه و يبطئ تقضيه وجعل له أردافا كثيرة وجعل له صلبا يمتد ويتطاول ورأوا هذا بخلاف مايستعيره أبو تمام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة ورأوا ان الالفاظ جميلة واعلم ان هذا صالح جميل وليس من الباب الذى يقال انه متناه عجيب وفيه المام بالتكلف ودخول فى التعمل وقد خرجوا له فى البديع من القصيدة قوله وقد اغتدى والطير فى وكناتها * بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا * كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقوله أيضا له أيطلا ظبى وساقا نعامة * وارخاء سرحان وتقريب تتفل

فأما قوله قيد الاوابد فهو مليح ومثله فى كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير والتعمل بمثله ممكن وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفا و يؤلفون المحاسن تأليفا ثم يوشحون به كلامهم والذين كانوا من قبل لغزارتهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك انما كان يتفق لهم اتفاقا و يطرد فى كلامهم اطرادا وأما قوله فى وصفه مكر مفر فقد جمع فيه طباقا وتشبيها وفى سرعة جرى الفرس للشعراء ماهو أحسن من هذا وألطف وكذلك فى جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه فى بيت واحد صنعة ولكن قد عورض فيه وزوحم والتوصل اليه يسير وتطلبه سهل قريب وقد بينا لك ان هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه وله شركاء فى نظائرها ومنازعون فى محاسنها ومعارضون فى بدائعها ولاسوأ كلام ينحت من الصخر تارة و يذوب تارة و يتلون تلون الحرباء و يختلف اختلاف الاهواء و يكثر فى تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه و بين قول يجرى فى سبكه على نظام و فى رصفه على منهاج و فى وضعه على حد و فى صفائه على باب و فى بهجته و رونقه على طريق مختلفة مؤتلف ومؤتلفة متحد ومتباعدة متقارب وشاردة مطيع ومطيعة وهو على متصرفاته واحد لايستصعب فى حال ولا يتعقد فى شأن وكما أردنا ان نتصرف فى قصائد مشهورة فنتكلم عليها وندل على معانيها ومحاسنها ونذكر لك من فضائلها ونقائصها ونبسط لك القول فى هذا الجنس ونفتح عليك فى هذا النهج ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره ووزنه بميزانه ومعياره ولذلك كتب وان لم تكن مستوفاة وتصانيف وان لم تكن مستقصاة وهذا

القدر يكفي في كتابنا ولم نحب ان ننسخ لك ماسطره الادباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني وماعاوه عليه في أشعاره وتكلموا به على ديوانه لان ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا ومجانب لمقصوده وانما أردنا ان نبين الجملة التي بناها لتعرف ان طريقة الشعر شريعة مورودة ومنزلة مشهودة يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم وأنت تجد للتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرّ عليه فيه وتجد للتأخر معنى قد أغفله المتقدم وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافيا اليه فهما فيه شريكا عنان وكأنهما فيه رضيعا لبان والله يؤتي فضله من يشاء * فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فان العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضل دون وصفه ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما نستدل به على الغرض وتستولي به على الأمد وتصل به الى المقصد وتتصور اعجازه كما تتصور الشمس وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر وأقرب عليك الغامض وأسهل لك العسير واعلم ان هذا علم شريف المحل عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف الاصحاب ليست له عشيرة تحميه ولا أهل عصمة تفطن لما فيه وهو أدق من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب ان وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام الا ان يكون شعرا أو سجعا وليس كذلك فان احدى اللفظتين قد تنفر في موضع وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الاخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها وتراها في مظانها وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها وتجد الاخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ومرمى شراد ونابية عن استقرار ولا أكثر عليك المثال ولا أضرب لك فيه الامثال وأرجع بك الى ماوعدتك من الدلالة وضمنت لك من تقريب المقالة فان كنت لا تعرف الفصل الذي بيننا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام ومتصرفات مجاري النظام لم تستفد مما نقرّبه عليك شيأ وكان التقليد أولى بك والاتباع أوجب عليك ولكل شئ سبب ولكل علم طريق ولا سبيل الى الوصول الى الشئ من غير طريقه ولا بلوغ غايته من غير سبيله * خذ الآن هداك الله في تفريغ الفكر وتخلية البال وانظر فيما نعرض عليك ونهديه اليك متوكلا على الله ومعتصما به ومستعيذا به من الشيطان الرجيم حتى تقف على اعجاز القرآن العظيم سماه الله عز ذكره حكيما وعظيما ومجيدا وقال لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقال لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون وقال ولو أن قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الامر جميعا وقال قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان حدثنا أبو يوسف الصيدلاني حدثنا محمد بن سلمة عن أبي سنان عن عمرو بن مرة عن أبي البختري الطائي عن الحارث الاعور عن علي رضي الله عنه قال قيل يا رسول الله ان امتك ستفتتن من بعدك فسأل أو سئل ما المخرج من ذلك فقال بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد من ابتغى العلم في غيره أضله الله ومن ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم فيه خبر من قبلكم وتبيان من بعدكم وهو فصل ليس بالهزل وهو الذي سمعته الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به لا يخلق على طول الرد ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه واخبرني أحمد بن علي بن الحسن أخبرنا أبي أخبرنا بشر بن عبد الوهاب أخبرنا هشام بن عبيد الله حدثنا المسيب بن شريك عن عبيدة عن أسامة بن أبي عطاء قال أرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى علي رضي الله عنه في ليلة فذكر نحو ذلك في المعنى وفي بعض ألفاظه اختلاف وأخبرنا أحمد بن علي بن الحسن أخبرنا أبي أخبرنا بشر بن عبد الوهاب أخبرنا هشام ابن عبيد الله حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ومن قرأ نصف القرآن أعطى نصف النبوة ومن قرأ القرآن كله أعطى النبوة كلها غير انه لا يوحى اليه وذكر الحديث ولو لم يكن من عظم شأنه الا انه طبق الارض أنواره وجلل الآفاق ضياؤه ونفذ في العالم حكمه وقبل في الدنيا رسمه وطمس ظلام الكفر بعدان كان مضروب الرواق ممدود الاطناب مبسوط الباع مرفوع العماد ليس على الارض من يعرف الله حق معرفته أو يعبده حق عبادته أو يدين بعظمته أو يعلم علو جلالته أو يتفكر في حكمته فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من انه نور فقال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم فانظر ان شئت الى شريف هذا النظم وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية تامة وكل لفظ بديع واقع قوله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا يدل على صدوره من الربوبية ويبين عن وروده عن الالهية وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه وكان واسطة عقده وفاتحة عقده وغرة شهره وعين دهره وكذلك قوله ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا فجعله روحا لانه يحيي الخلق فله فضل الارواح في الاجساد وجعله نورا لانه يضيئ ضياء الشمس في الآفاق ثم أضاف وقوع الهداية به الى مشيئته

Digitized by Google

ووقف وقوف الاسترشاد به على ارادته وبين انه لم يكن ليهتدى اليه لولا توفيقه ولم يكن ليعلم مافى الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه وانه لم يكن ليهتدى فكيف كان يهدى لولاه فقد صار يهدى ولم يكن من قبل ذلك ليهتدى فقال وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الارض ألا الى الله تصير الامور فانظر الى هذه الكلمات الثلاث فالكلمتان الاولتان مؤتلفتان وقوله ألا الى الله تصير الامور كلمة منفصلة مباينة للاولى قد صيرهما اشريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤالف وألطف انتظاما من الحديث الملائم وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته الامر أظهر والحمد لله والحال أبين من ان يحتاج الى كشف تأمل قوله فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم انظر الى هذه الكلمات الاربع التى ألف بينها واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره أليس كل كلمة منها فى نفسها غرة وبمنفردها درة وهو مع ذلك يبين انه يصدر عن علو الامر ونفاذ القهر ويتجلى فى بهجة القدرة ويتحلى بخالصة العزة ويجمع السلاسة الى الرصانة والسلامة الى المتانة والرونق الصافى والبهاء الضافى ولست أقول انه شمل الاطباق المليح والايجاز اللطيف والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل وان كان قد جمع ذلك وأكثر منه لان العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح ان تكون عين رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة فاذا ألفت ازدادت حسنا وزادتك اذا تأملت معرفة وايمانا ثم تأمل قوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم هل تجد كل لفظة وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع وتتضمن شرط القول البليغ فاذا كانت الآية تنتظم من البديع وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت حد المعهود ولا تحوز شأو المألوف وكيف لا تحوز قصب السبق ولا تتعالى عن كلام الخلق ثم اقصد الى سورة تامة فتصرف فى معرفة قصصها وراع ما فيها من براهينها وقصصها تأمل السورة التى يذكر فيها النمل وانظر فى كل كلمة كلمة وفصل وفصل بدأ بذكر السورة الى ان بين ان القرآن من عنده فقال وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وانه رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون وقال فى سورة طه فى هذه القصة لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى وفى موضع لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون قد تصرف فى وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ولهذا قال فليأتوا بحديث مثله ليكون أبلغ فى تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم وكل كلمة من

هذه الكلمات وان أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها ثم قال فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين فانظر الى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الثناء وكيف انتظم مع الكلام الأول وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الاخبار عن الربوبية ومادل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلا يدله عليه ومعجزة تهديه اليه وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بانفسها في الحسن وفيما تضمنه من المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية فكيف اذا قارنتها اخواتها وضامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها ثم من قصة الى قصة ومن باب الى باب من غير خلل يقع في نظم المفصل الى الفصل وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل وان أردت أن تتبين ما قلناه فصل تبين وتحقق بما ادعيناه زيادة تحقق فان كنت من أهل الصنعة فاعمد الى قصة من هذه القصص وحديث من هذه الأحاديث فعبر عنه بعبارة من جهتك واخبر عنه بألفاظ من عندك حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر ولذلك أعاد قصة موسى في سور وعلى طرق شتى وفواصل مختلفة مع اتفاق المعنى فلعلك ترجع الى عقلك وتستر ما عندك ان غلطت في أمرك أو ذهبت في مذاهب وهمك أو سلطت على نفسك وجه ظنك متى تهيأ لبليغ ان يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة فيجعلها مؤتلفة من غير ان يبين على كلامه اعياء الخروج والتنقل أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل واحسب أنه يسلم من هذا ومحال أن يسلم منه حتى يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد والألفاظ الاعلام حتى يجمع بينها فيجلو فيها فقرة من كلامه وقطعة من قوله ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة فمتى يتفق له في قدر ما نقول انه من القرآن معجز هيهات هيهات ان الصبح يطمس النجوم وان كانت زاهره والبحر يغمر الانهار وان كانت زاخره متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون وذكر قولهم قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري

Digitized by Google

ماذا تأمرين لا تجد فى صفتهم أبدع مما وصفهم به وقوله الامر اليك تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه فى هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله فانظرى ماذا تأمرين ثم الى هذا الاختصار والى البيان مع الايجاز فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الايجاز منه تصرفا يتجاوز محله وموضعه وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لو وقع على الافهام (٣) فما يجب فيه من شروط الاحكام أو بمعانى القصة وما تقتضى من الاعظام ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصا فى وجه الحكمة أو مدخولا فى باب السياسة أو مصفوفا فى طريق السيادة أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى أو جيد البلاغة مستجلب المعنى أو مستجلب البلاغة جيد المعنى أو مستنكر اللفظ وحشى العبارة أو مستبهم الجانب مستكره الوضع وأنت لا تجد فى جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط أفاد واذا اختصر كمل فى بابه وجاد واذا سرح الحكيم فى جوانبه طرف خاطره وبعث العليم فى أطرافه عيون مباحثه لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائع تترى ثم فكر بعد ذلك فى آية آية أو كلمة كلمة فى قوله ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم فى علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره ثم تأمل تمكن الفاصلة وهى الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها وان شرحت لك ما فى كل آية طال عليك الامر ولكنى قد بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذى سلكت والنحو الذى قصدت والغرض الذى اليه رميت والسمت الذى اليه دعوت ثم فكر بعد ذلك فى شئ أدلك عليه وهو تعادل هذا النظم فى الاعجاز فى مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة فأجل الرأى فى سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادئ والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما أنت قاض وان طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور ما رأيك فى قوله ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ورونقها على ما تعاين وفصاحتها على ما تعرف وهى تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو فى الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبى النساء واذا تحكم فى هذين الامرين فما ظنك بما دونهما لان النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد

(٣) هكذا بالاصل

وكفت فى التظليم وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وهذا من التأليف بين المؤتلف والجمع بين المستأنس كما أن قوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين وهى خمس كلمات متباعدة فى المواقع نائية المطارح قد جعلها النظم البديع أشد تألفا من الشئ المؤتلف فى الأصل وأحسن توافقا من المتطابق فى أول الوضع ومثل هذه الآية قوله وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ومثلها وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ومن المؤتلف قوله فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر ومن الباب الآخر قوله تعالى ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شئ هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها باضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم ونفور الطبع وشراد الكلام وتهافت القول وتمنع جانبه وقصور لك فى الايضاح عن واجبه ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة الى قصة وفصل الى فصل حتى تتبين عليك مواضع الوصل ويستصعب عليك أماكن الفصل ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة وأمثالا سائرة وحكما جليلة وأدلة على التوحيد بينة وكلات فى التنزيه والتمجيد شريفة وان أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين هل تجد كلامه فى المديح والغزل والفخر والهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص انك لتراه اذا جاء الى وصف واقعة أو نقل خبر عامى الكلام سوقى الخطاب مسترسلا فى أمره متساهلا فى كلامه عادلا عن المألوف من طبعه وناكبا عن المعهود من سجيته فان اتفق له فى قصة كلام جيد كان قدر ثنتين أو ثلاثة وكان ما زاد عليها حشوا وما تجاوزها لغوا ولا أقول انها تخرج من عادته عفوا لانه يقصر عن العفو ويقف دون العرف ويتعرض للركاكة فان لم تقنع بما قلت لك من الابيات فتأمل غير ذلك من السور هل تجد الجميع على ما وصفت لك ولم تكن الا سورة واحدة لكفت فى الاعجاز فكيف بالقرآن العظيم ولو لم يكن الا حديث من سورة لكفى وأقنع وشفى ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء لما طلبت بينة سواها بل قصة من قصصه وهى قوله وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون الى قوله فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى اسرائيل

Digitized by Google

فأتبعوهم مشرقين حتى قال فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ثم قصة ابراهيم عليه السلام ثم لو لم تكن الا الآيات التي انتهى اليها القول في ذكر القرآن وهي قوله وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وهذه كلمات مفردة بفواصلها منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة ومنها ما هي فاتحة وواسطة وفاصلة ومنها كلمة بفاصلتها تامة دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيرا وبين أنه آية لكونه نبيا ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فتأمل آية آية لتعرف الاعجاز وتتبين التصرف البديع والتنقل في الفصول الى آخر السورة ثم راع المقطع العجيب وهو قوله وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد وان تنظم مثل هذا النظم وان تجد مثل هذه النظائر السابقة وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ولولا كراهة الاملال لجئت الى كل فصل فاستقريت على الترتيب كلماته وبينت لك ما في كل واحدة منها من البراعة ومن عجيب البلاغة ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده وتستضيء بنوره وتهتدي بهداه ونحن نذكر آيات أخر لتزداد استبصارا وتتقدم تيقنا تأمل من الكلام المؤتلف قوله حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني وحسن الفاتحة والخاتمة وائتلاف ما بعدها من الآي واعرف وجه الخلوص من شيء الى شيء من احتجاج الى وعيد ومن اعذار الى انذار ومن فنون من الامر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم ومتباعدة تتقارب بعلي الضم ثم جاء الى قوله كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا انهم أصحاب النار الآية الأولى أربعة فصول والثانية فصلان وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وهل تقع في الحسن موقع قوله ليأخذوه كلمة وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة وهل يسد مسده في الاصالة نكتة لو وضع موضع ذلك ليقتلوه أو ليرجموه أو لينفوه او ليطردوه أو ليهلكوه أو ليذلوه ونحو هذا ما كان ذلك بعيدا ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا فانقد موضع هذه الكلمة وتعلم بها ما تذهب اليه من نخب الكلام وجميل الالفاظ والاهتداء للمعاني فان كنت تقدران شيأ من هذه الكلمات التي عددناها عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب فلا

سبيل لك الى الوقوف على تصاريف الخطاب فافزع الى التقليد واكف نفسك مؤنة التفكير وان فطنت فانظر الى ما قال من رد عجز الخطاب الى صدره بقوله فاخذتهم فكيف كان عقاب ثم ذكر عقيبها العذاب فى الآخرة واتلاها تلو العذاب فى الدنيا على الاحكام الذى رأيت ثم ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل فقال الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به الى أن ذكر ثلاث آيات وهذا كلام مفصول تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه الى ما تقدم وتقضى وعظم موضعه فى معناه ورفيع مايتضمن من تحميدهم وتسبيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظا ومعنى ولطيف هذه الحكاية وتلاؤم هذا الكلام وتشاكل هذا النظام وكيف يهتدى الى وضع هذه المعانى بشرى والى تركيب مايلائمها من الالفاظ انسى ثم ذكر ثلاث آيات فى أمر الكافرين على ماترى ثم نبه على أمر القرآن وانه من آياته بقوله هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ومايتذكر الا من ينيب واعاد ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما لتناسبهما فى أنهما من تنزيله من السماء ولان الرزاق الذى لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس تجب طاعته والنظر فى آياته ثم قال فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على مايشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار قف على هذه الدلالة وفكر فيها وراجع نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفات العالية والكلمات السامية والحكم البالغة والمعانى الشريفة تعلم ورودها عن الالهية ودلالتها على الربوبية وتحقق أن الخطب المنقولة عنهم والأخبار المأثورة فى كلماتهم الفصيحة من الكلام الذى تعلق به الهمم البشرية وماتحوم عليه الأفكار الآدمية وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول أى خاطر يتشوف الى أن يقول يلقى الروح من أمره على مايشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون وأى لفظ يدرك هذا المضمار وأى حكيم يهتدى الى مالهذا من الغور وأى فصيح يهتدى الى هذا النظم ثم استقرئ الآية الى آخرها واعتبر كلماتها وراع بعدها قوله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ان الله سريع الحساب من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها وعلى خفتها فى النظم وموقعها من القلب ثم تأمل قوله وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشئ ان الله هو السميع البصير كل كلمة من ذلك على ماقد وصفتها من أنه اذا رآها الانسان فى رسالة كانت عينها أو فى خطبة كانت وجهها أو قصيدة كانت غرة غرتها وبيت قصيدتها كاليا قوتة التى تكون فريدة العقد وعين

القلادة ودرة الشذر اذا وقع بين كلام وشعه واذا ضمن فى نظام زينه واذا اعترض فى خطاب تميز عنه وبان بحسنه منه ولست أقول هذا لك فى آية دون آية وسورة دون سورة وفصل دون فصل وقصة دون قصة ومعنى دون معنى لانى قد شرحت لك ان الكلام فى حكاية القصص والاخبار وفى الشرائع والاحكام وفى الديانة والتوحيد وفى الحجج والتثبيت هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الامور ألا ترى أن الشاعر المفلق اذا جاء الى الزهد قصر والاديب اذا تكلم فى بيان الاحكام وذكر الحلال والحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه فى غيره ونظم القرآن لا يتفاوت فى شئ ولا يتباين فى أمر ولا يختل فى حال بل له المثل الاعلى والفضل الاسنى وفيما شرحناه لك كفاية وفيما بيناه بلاغ ونذكر فى الاحكاميات وغيرها آيات أخر منها قوله يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب أنت تجد فى هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب والنظم البارع ما يدلك ان شئت على الاعجاز مع هذا الاختيار والايجاز فكيف اذا بلغ ذلك آيات وكانت سورة ونحو هذه الآية قوله الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذين يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون وكالآية التى بعدها فى التوحيد واثبات النبوة وكالآيات الثلاث فى المواريث أى بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض فى قدرها من الكلام ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم وان جئت الى آيات الاحتجاج كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسألون وكالآيات فى التوحيد كقوله هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين وكقوله تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا وكقوله تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير الى آخرها وكقوله والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب هذه من الآيات التى قال فيها الله تعالى ذكره الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم

تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد وانظر بعين عقلك وراجع جليسة بصيرتك اذا تفكرت فى كلمة كلمة مما نقلناه اليك وعرضناه عليك ثم فيما ينتظم من الكلمات ثم الى أن يتكامل فصلا وقصة أو يتم حديثا وسورة لا بل فكر فى جميع القرآن على هذا الترتيب وتدبره على نحو هذا التنزيل فلم ندع ما ادعيناه لبعضه ولم نصف ما وصفناه الا فى كله وان كانت الدلالة فى البعض أبين وأظهر والآية أكشف وأبهر واذا تأملت على ما هديناك اليه ووقفناك عليه فانظر هل ترى وقع هذا النور فى قلبك واشتماله على لبك وسريانه فى حسك ونفوذه فى عروقك وامتلاءك به ايقانا واحاطة واهتداءك به ايمانا وبصيرة أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه والهزة تعمل فى جوانبك من لون والأريحية تستولى عليك من باب وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه وتجد فى نفسك من المعرفة التى حدثت لك عزة وفى أعطافك ارتياحا وهزة وترى لك فى الفضل تقدما وتبريزا وفى اليقين سبقا وتحقيقا وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة ومهاويهم فى ظلال القلة والذلة وأقدارهم بالعين التى يجب أن تلحظ بها مراتبهم بحيث يجب أن ترتبها هذا كله فى تأمل الكلام ونظامه وعجيب معانيه وأحكامه فان جئت الى ما انبسط فى العالم من بركته وأنواره وتمكن فى الافاق من يمنه وأضوائه وثبت فى القلوب من اكباره واعظامه وتقرر فى النفوس من حتم أمره ونهيه ومضى فى الدماء من مفروض حكمه والى أنه جعل عماد الصلاة التى هى تلو الايمان فى التأكيد وثانية التوحيد فى الوجوب وفرض حفظه ووكل الصغار والكبار بتلاوته وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه من قوله فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه فهل يدلك هذا على عظيم شأنه وراجح ميزانه وعالى مكانه وجملة الأمر أن نقد الكلام شديد وتمييزه صعب ومما كتب الى الحسن بن عبد الله العسكرى أخبرنى أبو بكر بن دريد قال سمعت أبا حاتم يقول سمعت الأصمعى يقول فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب وقال سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول العلماء بالشعر أعز من الكبريت الأحمر واذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق تمييزه ويصعب نقده يذهب عن محاسنه الكثير وينظرون الى كثير من قبيحه بعين الحسن وكثير من حسنه بعين القبح ثم يختلفون فى الأحسن منه اختلافا كثيرا وتتباين آراؤهم فى تفضيل ما تفضل منه فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم ولا يتأتى فى مقدورهم ولا يعمل بخواطرهم وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم ولا أتم بلاغة ولا أحسن براعة حتى دهشوا حين ورد عليهم وولهت عقولهم ولم يكن

عندهم فيه جواب غير ضرب الأمثال والتعرض عليه والتوهم فيه وتقسيمه أقساما وجعله عضين وكيف لا يكون أحسن الكلام وقد قال الله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ومن يضلل الله فماله من هاد استغنم فهم هذه الآية وكفاك استفد علم هذه الكلمات وقد أغناك فليس يوقف على حسن الكلام بطوله ولا تعرف براعته بكثرة فصوله ان القليل يدل على الكثير والقريب قد يهجم بك على البعيد ثم انه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة وكبر محلها وذهابها على أقوام ذكر في آخر هذه الآية ماذكر وبين ما بين فقال ذلك هدى الله يهدي به من يشاء فلا يعلم ما وصفنا لك الا بهداية من العزيز الحميد وقال ومن يضلل الله فماله من هاد وقال يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وقد بسطنا لك القول رجاء افهامك وهذا المنهاج الذي رأيته ان سلكته يأخذ بيدك ويدلك على رشدك ويغنيك عن ذكر براعته آية آية لك واعلم أنا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات وسميناه من السور والدلالات ذكر الأحسن والأكشف والأظهر لانا نعتقد في كل سورة ذكرناها وأضربنا عن ذكرها اعتقادا واحدا في الدلالة على الاعجاز والكفاية في التمنع والبرهان ولكن لم يكن بد من ذكر بعض فذكرنا ما تيسر وقلنا فيما اتجه في الحال وخطر وان كنا نعتقد ان الاعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعض ادق وأغمض والكلام في هذا الفصل يجيء بعد هذا فاحفظ عنا في الجملة ما كررناه والسير بعد ذلك في التفصيل اليك وحصل ما أعطيناك من العلامة ثم النظر عليك قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم الى قسمين أحدهما ما يتم بنفسه أو بنفسه وفاصلته فينير في الكلام انارة النجم في الظلام والثاني ما يشتمل على كلتين أو كلمات اذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة وغاية البلاغة وانما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير أو خطاب طويل فتراها ما بينها تدل على نفسها وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها فاذا ضمت الى أخواتها وجاءت في ذواتها أرتك القلائد منظومة كما كانت تريك عند تأمل الافراد منها اليواقيت منثورة والجواهر مبثوثة ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر لأنشدتك ألفاظا وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه وكيف ترى بهجتها في أثنائه وكيف تمتاز منه حتى أنه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبين أنه أجنبي من الكلام الذي تضمنه والباب الذي توسطه وأنكر مكانه واستكبر موضعه ثم تتناسبها في البلاغة والابداع وتماثلها في السلاسة والاغراب ثم انفرادها بذلك الاسلوب وتخصصها بذلك الترتيب ثم سائر ما قد مناذكره مما نكرره اعادته وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه

و يختل تصرفه فى معانيه و يتفاوت التفاوت الكثير فى طرقه و يضيق به النطاق فى مذاهبه و يرتبك فى أطرافه و جوانبه و يسلمه للتكلف الوحش كثرة تصرفه و يحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله و تخلصه و نظم القرآن فى مؤتلفه و مختلفه و فى فصله و وصله و افتتاحه و اختتامه و فى كل نهج يسلكه و طريق يأخذ فيه و باب يتهجم عليه و وجه يؤمه على ما وصفه الله تعالى به لا يتفاوت كما قال و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا و لا يخرج عن تشابهه و تماثله كما قال قرآنا عربيا غير ذى عوج و كما قال كتابا متشابها و لا يخرج عن اباننه كما قال بلسان عربى مبين و غيره من الكلام كثير التلون دائم التغير يقف بك على بديع مستحسن و يعقبه قبيح مستهجن و يطلع عليك بوجه الحسناء ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء و يأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التى هى كاللآلئ الزهر و قد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم قد يقع اليك منه الكلام المنيج و النظم المشوش و الحديث المشوه و قد تجد منه ما لا يتناسب و لا يتشابه و لا يتألف و لا يتماثل و قد قيل فى وصف ما جرى هذا المجرى

وشعر كبعر الكبش فرق بينه ✽ لسان دعى فى القريض دخيل

و قال آخر و بعض قريض القوم أولاد علة ✽ يكد لسان الناطق المتحفظ

فان قال قائل فقد نجد فى آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت و لا تتميز الكلمات بوجه البراعة و انما تكون البراعة عندك منه فى مقدار يزيد على الكلمات المفردة و حد يتجاوز حد الالفاظ المستبدة و ان كان الاكثر على ما وصفته به قيل له نحن نعلم أن قوله حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم و أخواتكم و عماتكم و خالاتكم الى آخر الآية ليس من القبيل الذى يمكن اظهار البراعة فيه و ابانة الفصاحة و ذلك يجرى عندنا مجرى ما يحتاج الى ذكره من الأسماء و الألقاب فلا يمكن اظهار البلاغة فيه فطلبها فى نحو هذا ضرب من الجهالة بل الذى يعتبر فى نحو ذلك تنزيل الخطاب و ظهور الحكمة فى الترتيب و المعنى و ذلك حاصل فى هذه الآية ان تأملت ألا ترى انه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها و ادلائها بنفسها و مكان بعضيتها فهى أصل لكل من يدلى بنفسه منهن لأنه ليس فى ذوات الأنساب أقرب منها و لما جاء الى ذوات الاسباب ألحق لها حكم الأم من الرضاع لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه فيحصل بذلك أيضا لها حكم البعضية فنشر الحرمة بهذا المعنى و ألحقها بالوالدة و ذكر الأخوات من الرضاعة فنبه بها على كل من يدلى بغيرها و جعلها تلو الأم من الرضاع و الكلام فى اظهار حكم هذه الآية و فوائدها يطول و لم نضع كتابنا لهذا و سبيل هذا ان نذكره فى كتاب معانى القرآن ان سهل الله لنا املاءه و جمعه فلم تنفك هذه الآية من

Digitized by Google

الحكم التى تخلف حكمة الاعجاز فى النظم والتأليف والفائدة التى تنوب مناب العدول عن البراعة فى وجه الترصيف فقد علم السائل أنه لم يأت بشئ ولم يهتد للاغراض فى دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته وقد يتفق فى الشعر ذكر الاسامى فيحسن موقعه كقول أبى دواد الأسدى

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم * بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم كلبا على أعدائه * وأعزهم فقدا على الأصحاب

وقد يتفق ذكر الاسامى فيفسد النظم ويقبح الوزن والآيات الاحكاميات التى لابد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الالفاظ ما يعتبر فى غيرها وقد يمكن فيها وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد فى القرآن فى بابه ماليس عليه مزيد فى البلاغة وعجيب النظم ثم فى جملة الآيات ما ان لم تراع البديع البليغ فى الكلمات الافراد والالفاظ الآحاد فقد تجد ذلك مع تركب الكلمتين والثلاث ويطرد ذلك فى الابتداء والخروج والفواصل وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة أو باجتماع ذلك أو فى بعض ذلك ما يخلف الابداع فى افراد الكلمات وان كانت الجملة والمعظم على ماسبق الوصف فيه واذا عرف ما يجرى اليه الكلام وينهى اليه الخطاب ويقف عليه الأسلوب ويختص به القبيل بان عند أهل الصنعة تميز بابه وانفراد سبيله ولم يشك البليغ فى انتمائه الى الجهة التى ينتمى اليها ولم يرتب الاديب البارع فى انتسابه الى ماعرف من نهجه وهذا كما يعرف طريقه مترسل فى رسالته فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه فكأنه يرى أنه يعد عليه مجارى حركاته وأنفاسه وكذلك فى الشعر واختلاف ضروبه يعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر وفى نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها وتقصيها بطول وعجائبها لا تنقضى فنها الكلام (٣) والاشارات واذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغا زاد الافهام به على الايضاح أو ساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه كأن النهاية فى معناه وذلك كقوله سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير فصول هذه الآية وكلماتها على ماشرحناه من قبل البلاغة واللطف فى التقدم وفى تضمن هذا الأمر العظيم والمقام الكريم ويتلوه هذه قوله وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل هذا خروج لو كان فى غير هذا الكلام لتصور فى صورة المنقطع وقد تمثل فى هذا النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع مالا ينفك منه القول وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه التشبيح والتباين للخلل الواقع فى النظم وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم يبن عليه تميزا لخروج ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب الى ذكر

(٣) هنا بياض بالاصل

نوح وكيف أثنى عليه وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول الى ذكره واجرائه الى مدحه بشكره وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته وأن يستنوا بسنته فى أن يشكروا كشكره ولا يتخذوا من دون الله وكيلا وان يعتقدوا تعظيم تخليصه اياهم من الطوفان لما حملهم عليه ونجاهم فيه حين أهلك من عداهم به وقد عرفهم أنه انما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم ثم عاد عليهم بالافضال والاحسان حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذى ولدهم وهم من ذريته فلما عادوا الى جهالتهم وتمردوا فى طغيانهم عاد عليهم بالتعذيب ثم ذكر الله عز وجل فى ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التى كانت لهم بكلمات قليلة فى العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها الا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة على أعجب تدريج وأبدع تاريخ بقوله ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها ولم ينقطع بذلك الكلام وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه فكيف بالقاء ما ليس منه فى اثنائه وطرح ما بعده فى ادراجه الى أن خرج الى قوله عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا يعنى ان عدتم الى الطاعة عدنا الى العفو ثم خرج خروجا آخر الى ذكر القرآن وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام وماله من علو الشان لا يطلب مطلبا الا انفتح ولا يسلك قلبا الا انشرح ولا يذهب مذهبا الا استنار وأضاء ولا يضرب مضربا الا بلغ فيه السماء لا نقع منه على فائدة فقدرت انها اقصى فوائدها الا قصرت ولا تظفر بحكمة فظننت انها زبدة حكمها الا وقد أخللت ان الذى عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله وأحمق من هنقة لو كان شعره كله كالابيات المختارة التى قدمناها الاوجب البراءة من قوله

وسن كسنيق سناء وسنما * ذعرت بعد لاج الهجير نهوض

قال الاصمعى لا أدرى ما السن ولا السنيق ولا التسنم وقال بعضهم السنيق أكمة وقال فيها

له قصر باعير وساقا نعامة * كفحل الهجان القيصرى العضوض

وقوله عصافير وذبان ودود * وأجرأ من مجلجلة الذباب

وزاد فى تقبيح ذلك وقوعه فى أبيات فيها

فقد طوفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالاياب

وكل مكارم الاخلاق سارت * اليه همتى ونما اكتسابى

وكقوله فى قصيدة قالها فى نهاية السقوط

أزمان فوها كلما نبهتها * كالمسك فاح وظل فى الفدام

أفلا ترى أظعانهن بواكرا * كالنخل من شوكان حين صرام
وكأن شاربها أصاب لسانه * موم يخالط جسمه بقام

وكقوله لم يفعلوا فعل آل حنظلة * انهم جير بئسما ائتمروا
لاجيرى وفى ولا عدس * ولااست عير يحكها الثفر
ان بنى عوف ابتنوا حسبا * ضيعه الداخلون اذ غدروا

وكقوله أبلغ شهابا وأبلغ * هل أتاك الحيزمال
اناتر كامنكم قتلى * بخوعى وسبيا كالسعالى
يعشين بين رحالنا * معترفات بجوع وهزال

ولم يقع مثل ذلك له وحده فقد قال الأعشى

فأدخلك الله بردا الجنان * جذلان فى مدخل طيب

وقال أيضا فرميت غفلة عينه عن شأنه * فأصبت حبة قلبها وطحالها

وقال فى فرسه

ويأمر للهموم كل عشية * بقت وتعليق فقد كاد يسنق
وقال شأومشل * شلول شلشل شول

وهذه الالفاظ فى معنى واحد وقد وقع لزهير نحوه كقوله

فأقسمت جهدا بالمنازل من منى * وماسفمت فيه المقادم والقمل

كيف يقال هذا فى قصيدة يقول فيها

وهل ينبت الخطى الاوشيجه * وتغرس الا فى منابتها النخل

وكقول الطرماح

سوف تدنيك من لميس سبنتاة * امارت بالبول ماء الكراض

السبنتاة الناقة الصلبة والكراض ماء الفحل اسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف والمائر السائل فان قال قائل أجدك تحاملت على امرئ القيس و رأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة و بين اللطف والشكاسة و بين التوحش والاستئناس والتقارب والتباعد و رأيت الكلام الاعدل أفضل والنظام المستوثق أكمل وأنت تجد البحترى يسبق فى هذا الميدان و يفوت الغاية فى هذا الشأن وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام و يقدمون رأيه فى البلاغة على كل رأى وكذلك تجد لأبى نواس من بهجة اللفظ ودقيق المعنى مايتحير فيه أهل اللفظ و يقدمه الشطار والظراف على كل شاعر و يرون لنظمه روعة لايرون لنظم غيره و زبرجا لايتفق لسواه فكيف يعرف فضل

ماسواه عليه فالجواب ان الكلام فى أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن قد تقدم واذ كنا قد بينا ان شعر امرئ القيس وهو كبيرهم الذى يقرون بتقدمه وشيخهم الذى يعترفون بفضله وقائدهم الذى يأتمون به وامامهم الذى يرجعون اليه كيف سبيله وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن وانه لا يخلط بشعره غبار ذلك النظم وهو اذا لحظ ذلك كان كما قال

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر * مع الصبح فى اعجاز نجم مغرب

وكما قال أيضا

راحت مشرقة ورحت مغربا * فتى التقاء مشرق ومغرب

واذا كنا قد أبنا فى القاعدة ما علمت وفضلنا لك فى شعره ما عرفت لم نحتج الى أن نتكلم على شعر شاعر وكلام كل بليغ والقليل يدل على الكثير وقد بينا فى الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الاساليب ومزيته عليها فى النظم والترتيب وتقدمه عليها فى كل حكمة وبراعة ثم تكلمنا على التفضيل على ما شهدت ولا يبقى علينا بعد ذلك سؤال ثم نقول أنت تعلم ان من يقول بتقدم البحترى فى الصنعة به من الشغل فى تفضيله على ابن الرومى أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع معه فى تقديمه على امرئ القيس ومن فى طبقته وكذلك أبو نواس انما يعدل شعره بشعر أشكاله ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره وانما يقع بينهم التباين اليسير والتفاوت القليل فاما ان يظن ظان أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق وانما هى خواطر يغير بعضها على بعض ويقتدى فيها بعض ببعض والغرض الذى يرمى اليه ويصح التوافى عليه فى الجملة فهو قبيل متداول وجنس متنازع وشريعة مورودة وطريقة مسلوكة ألا ترى الى ما روى عن الحسين بن الضحاك قال أنشدت أبا نواس قصيدتى التى فيها

وشاطرى اللسان مختلق التكـ * ـريه زان المجون بالنسك

كأنه نصب كأنه قمر * يكرع فى بعض أنجم الفلك

قال فأنشدنى أبو نواس بعد أيام قصيدته التى يقول فيها

أعاذل اعتبت الامام واعتبا * وأعربت عما فى الضمير وأعربا

وقلت لساقيها اجزها فلم أكد * ليأبى أمير المؤمنين وأشربا

تجوزها عنى عقارا ترى لها * الى الشرف الاعلى شعاعا مطنبا

اذا عب فيها شارب القوم خلته * يقبل فى داج من الليل كوكبا

قال فقلت له يا أبا على هذه مقالته فقال أتظن انه يروى لك معنى وأنا حى فتأمل هذا الاخذ وهذا الوضع وهذا الاتباع أما الخليع فقد رأى الابداع فى المعنى فأما العبارات فانها ليست على ما ظنه لان قوله يكرع ليس بصحيح وفيه ثقل بين وتفاوت وفيه احالة لان القمر لا يصح

تصورا أن يكرع فى نجم وأما قول أبى نواس اذا عب فيها فكلمة قد قصد فيها المتانة وكان سبيله أن يختار سواها من الفاظ الشرب ولو فعل ذلك كان أملح وقوله شارب القوم فيه ضرب من التكلف الذى لا بد له منه أو من مثله لاقامة الوزن ثم قوله خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا تشبيه بحالة واحدة من أحواله وهى ان يشرب حيث لا ضوء هناك وانما يتناوله ليلا فليس بتشبيه مستوفى على مافيه من الوقوع والملاحة وقد قال ابن الرومى ماهو أوقع منه وأملح وأبدع

ومهفهف تمت محاسنه * حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكؤس الى مراشفه * وتحن فى يده الى الحبس
أبصرته والكأس بين فم * منه وبين أنامل خمس
وكأنها وكأن شاربها * قمر يقبل عارض الشمس

ولا شك فى أن تشبيه ابن الرومى أحسن وأعجب الا أنه تمكن من ايراده فى بيتين وهما مع سبقهما الى المعنى أتيا به فى بيت واحد وانما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة يقع فيها التنافس والتعارض والاطماع متعلقة بها والهمم تسمو اليها وهى الف طباعنا وطوع مدار كلومجانس لكل منا واعجاب قوم بنحو هذا ومايجرى مجراه وايثار أقوام لشعر البحترى على أبى تمام وعبد الصمد وابن الرومى وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه وذهاب قوم عن المعرفة ليس بأمر يضر بنا ولا سبب يعترض على أفهامنا ونحن نعمد الى بعض قصائد البحترى فنتكلم عليها كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس ليزداد الناظر فى كلامنا بصيرة ويستخلص من سر المعرفة سريرة ويعلم كيف تكون الموازنة وكيف تقع المشابهة والمقاربة ونجعل تلك القصيدة التى نذكرها أجود شعره سمعت الصاحب اسماعيل بن عباد يقول سمعت أبا الفضل بن العميد يقول سمعت أبا مسلم الرستمى يقول سمعت البحترى يذكر أن أجود شعره قاله (أهلا بذلكم الخيال المقبل) قال وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول أجود شعره هو قوله فى الشيب زجره لو كان ينزجر قال وسئلت عن ذلك فقلت البحترى أعرف بشعره نفسه من غيره فنحن الآن نقول فى هذه القصيدة مايصلح فى مثل هذا قوله

أهلا بذلكم الخيال المقبل * فعل الذى نهواه أو لم يفعل
برق سرى فى بطن وجرة فاهتدت * بسناه أعناق الركاب الضلل

البيت الاول فى قوله ذلكم الخيال ثقل روح وتطويل وحشو وغيره أصلح له وأخف منه قول الصنوبرى

أهلا بذاك الزور من زور * شمس بدت فى فلك الدور

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف فيصير الى الكزازة وتعود ملاحته بذلك ملوحة وفصاحته عيا وبراعته تكلفا وسلاسته تعسفا وملاسته تلويا وتعقدا فهذا فصل وفيه شئ آخر وهو أن هذا الخطاب انما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال اقباله فأما أن يحكى الحال التى كانت وسلفت على هذه العيادة ففيه عهدة وفى تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة وهو لبراعته وحذقه فى هذه الصنعة يعلق نحو هذا الكلام ولا ينظر فى عواقبه لان ملاحة قوله تغطى على عيون الناظرين فيه نحو هذه الامور ثم قوله فعل الذى نهواه أو لم يفعل ليست بكلمة رشيقة ولا لفظة ظريفة وان كانت كسائر الكلام فأما بيته الثانى فهو عظيم الموقع فى البهجة وبديع المأخذ حسن الرواء أنيق المنظر والمسمع يملأ القلب والفهم ويفرح الخاطر وترى بشاشته فى العروق وكان البحترى يسمى نحو هذه الابيات عروق الذهب وفى نحوه ما يدل على براعته فى الصناعة وحذقه فى البلاغة ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل مع الديباجة الحسنة والرونق المليح وذلك أنه جعل الخيال كالبرق لاشراقه فى مسراه كما يقال انه يسرى كنسيم الصبا فيطيب ما مر به كذلك يضيء ما مر حوله وينور ما مر به وهذا غلو فى الصنعة الا أن ذكره بطن وجرة حشو وفى ذكره خلل لان النور القليل يؤثر فى بطون الارض وما اطمأن منها بخلاف ما يؤثر فى غيرها فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة وتحديده المكان على الحشو أحد من تحديد امرئ القيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم يقنع بذكر حد حتى حده بأربع حدود كأنه يريد بيع المنزل فيخشى ان أخل بحد أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا فهذا باب ثم انما يذكر الخيال بخفاء الاثر ودقة المطلب ولطف المسلك وهذا الذى ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما يوضع عليه أصل الباب ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحترى قطع الكلام الاول وابتدأ بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة لان هذا القطع ان كان فعله كان خارجا به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعا ثم كان لا تكون فيه فائدة لان كل برق شعل وتكرر وقع الاهتداء به فى الظلام وكان لا يكون بما نظمه مفيدا ولا معتقدا ما وهو على ما كان من مقصده فهو ذو لفظ محمود ومعنى مستهجن غير مقصود ويعلم بمثله أنه طلب العبارات وتعليق القول بالاشارات وهذا من الشعر الجنس الذى يحلو لفظه وتقل فوائده كقول القائل

ولما قضينا من منى كل حاجة ● ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ● ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا ● وسالت بأعناق المطى الأباطح

هذه ألفاظ بعيدة المطالع والمقاطع حلوة المجانى والمواقع قليلة المعانى والفوائد فأما قول البحترى بعد ذلك

من غادة منعت وتمنع نيلها * فلو أنها بذلت لنا لم تبذل

كالبدر غير مخبل والغصن غير ميل والدعص غير مهيل

فالبيت الاول على ما تكلف فيه من المطابقة وتجشم الصنعة ألفاظه أوفر من معانيه وكلماته أكثر من فوائده وتعلم أن القصد وضع العبارات فى مثله ولو قال هى ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله وتكثيره الكلام وتهويله ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان وأما البيت الثانى فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول ولا فضيلة فى التشبيه بنحو ذلك وانما يبقى تشبيهه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فى البيت وهذا أيضا قريب لأن المعنى مكرر ويبقى له بعد ذلك شئ آخر وهو تعلله للترصيع فى البيت كله الا أن هذه الاستثناآت فيها ضرب من التكلف لأن التشبيه بالغصن كاف فاذا زاد فقال كالغصن غير معوج كان ذلك من باب التكلف خلا وكان ذلك زيادة يستغنى عنها وكذلك قوله كالدعص غير مهيل لأنه اذا انهال خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفا اليه فلا يكون لتقييده معنى وأما قوله

ما الحسن عندك ياسعاد بمحسن * فيما أتاه ولا الجمال بمجمل

عذل المشوق وان من سيما الهوى * فى حيث تجهله لجاج العذل

قوله فى البيت الاول عندك حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة والمعنى الذى قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء وفيه شئ آخر لانه يذكر أن حسنها لم يحسن فى تهييج وجده وتهييم قلبه وضد هذا المعنى هو الذى يميل اليه أهل الهوى والحب وبيت كشاجم أسلم من هذا وأبعد من الخلل وهو قوله

بحياة حسنك أحسنى وبحق من * جعل الجمال عليك وقفا اجمل

وأما البيت الثانى فان قوله فى حيث حشا بقوله فى كلامه ووقع ذلك مستنكرا وحشيا نافرا عن طبعه جافيا فى وضعه فهو كرقعة من جلد فى ديباج حسن فهو يمحو حسنه ويأتى على جماله ثم فى المعنى شئ لان لجاج العذل لا يدل على هوى مجهول ولو كان مجهولا لم يهتدوا للعذل عليه فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعانى ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن فى البيت معنى بديع ولا شئ يفوت قول الشعراء فى العذل فان ذلك جلهم الذلول وقولهم المكرر وأما قوله

ماذا عليك من انتظار متيم * بل ما يضرك وقفة فى منزل

ان سيل عمى عن الجواب فلم يطق * رجعا فكيف يكون ان لم يسئل

لست أنكر حسن البيتين وظرفهما ورشاقتهما ولطفهما وماءهما وبهجتهما الا أن البيت الاول منقطع عن الكلام المتقدم ضربا من الانقطاع لانه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر وانما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم ثم الذى ذكره من الانتظار وان كان مليحا فى اللفظ فهو فى المعنى متكلف لان الواقف فى الدار لا ينتظر أمرا وانما يقف تحسرا وتذللا وتحيرا والشطر الاخير من البيت واقع والاول مستجلب وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر لان وضع البيت يقتضى تقدم عذل على الوقوف ولم يحصل ذلك مذكورا فى شعره من قبل وأما البيت الثانى فانه معلق بالاول لا يستقل الا به وهم يعيبون وقوف البيت على غيره ويرون أن البيت التام هو المحمود والمصراع التام بنفسه بحيث لا يقف على المصراع الآخر أفضل وأتم وأحسن وقوله فكيف يكون ان لم يسئل مليح جدا ولا تستمر ملاحة ماقبله عليه ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه وفيه شئ آخر لانه لا يصلح أن يكون السؤال سببا لان يعيا عن الجواب وظاهر القول يقتضيه فأما قوله

لا تكلف لى الدموع فان لى * دمعا ينم عليه ان لم يفضل
ولقد سكنت الى الصدود من النوى * والشرى أريا عند طعم الحنظل
وكذاك طرفه حين أوجس ضربة * فى الرأس هان عليه فصد الاكحل

فالبيت الاول مخالف لما عليه مذهبهم فى طلب الاسعاد بالدموع والاسعاف بالبكاء ومخالف لاول كلامه لانه يفيد مخاطبة العذل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الالفاظ وتصنيعها دون ضبط المعانى وترتيبها ولذلك قال الله عز وجل والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون فأخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف أطاعهم والمعانى كيف يتبع ألفاظهم وذلك خلاف ماوضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن فصار بهذا أبلغ خطابهم ثم لو أن هذا البيت ومايتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن فى ذلك شئ يفوت شعر شاعر أو كلام متكلم وأما قوله والشرى أرى فانه وان كان قد تصنع له من جهة الطباق ومن جهة التجنيس المقارب فهى كلمة ثقيلة على اللسان وهم يذمون نحو هذا كما عابوا على أبى تمام قوله

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى * ومتى مالمته لمته وحدى

ذكر لى الصاحب بن عباد أنه جارى أبا الفضل بن العميد فى محاسن القصيدة حتى انتهى الى هذا البيت فذكر له أن قوله أمدحه أمدحه معيب لثقله من جهة تدارك حروف الحلق ثم

Digitized by Google

رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا في هذه النكتة فعلمت أن ذلك شئ عند أهل الصنعة معروف ثم ان قوله عند أكل الحنظل ليس بحسن ولا واقع وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه غريب في طباعه نافر من جملة شعره وفيه كزازة وفجاجة وان كان المعنى صالحا فأما قوله

وأغر في الزمن البهيم محجل * قد رحت منه على أغر محجل

كالهيكل المبني الا أنه * في الحسن جاء كصورة في هيكل

فالبيت الاول لم يتفق له فيه خروج حسن بل هو مقطوع عما سلف من الكلام وعامة خروجه نحو هذا وهو غير بارع في هذا الباب وهذا مذموم معيب منه لأن من كان صناعته الشعر وهو يأكل به وتغافل عما يرفع اليه في كل قصيدة واستهان باحكامه وتجويده مع تتبعه لان يكون عامة ما يصدر به اشعاره من النسيب عشرة أبيات وتتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب العبارات وتنقيح الالفاظ وتزويرها كان ذلك أدخل في عيبه وأدل على تقصيره أو قصوره وانه لا يقع له الخروج منه وأما قوله وأغر في الزمن البهيم محجل فان ذكر التحجيل في الممدوح قريب وليس بالجيد وقد يمكن أن يقال انه اذا قرن بالاغر حسن وجرى مجراه وانخرط في سلكه وأهوى الى مضماره ولم ينكر لمكانه من جواره فهذا عذر والعدول عنه أحسن وانما أراد أن يرد العجز على الصدر ويأتي بوجه في التجنيس وفيه شئ لان ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطيا الاغر الاول ورائحا عليه ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء وأقاويل الناس فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني ورده عجز البيت عليه وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة وعمل شيأ حتى كررها فهي كلمة فيها ثقل ونحن نجدهم اذا أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا ماهو الا صورة وما هو الا تمثال وما هو الا دمية وما هو الا اطبية ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان وقد استدرك هو أيضا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل كان أولى وأجمل ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها وأفزعوهم بذكرها وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم وأما قوله

وافى الضلوع يشد عقد حزامه * يوم اللقاء على معم مخول

أخواله للرستمين بفارس * وجدوده للتبعين بموكل

نبل المحزم مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع وقوله يشد عقد حزامه داخل في التكلف والتعسف لا يقبل من مثله وان قبلناه من غيره لانه يتتبع الالفاظ وينقدها نقدا شديدا فهلا قال يشد حزامه أو يأتي بحشو آخر سوى العقد فقد عقد هذا البيت بذكر العقد ثم قوله

يوم اللقاء حشو آخر لا يحتاج اليه وأما البيت الثانى فمعناه أصلح من ألفاظه لانها غير مجانسة لطباعه وفيها غلظ ونفار وأما قوله

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت * صيدا وينقض انقضاض الاجدل

متوجس برقيقتين كأنما * تريان من ورق عليه موصل

ماان يعاف قذى ولو أوردته * يوما خلائق جدويه الاحول

البيت الاول صالح وقد قاله الناس ولم يسبق اليه ولم يقل مالم يقولوه بل هو منقول وفى سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها وقد يقولون يفوت الطرف ويسبق الريح ويجارى الوهم ويكر النظر ولولا أن الاتيان على محاسن ماقالوه فى ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب نقلت لك جملة مما ذهبوا اليه فى هذا المعنى فتتبع تعلم أنه لم يأت فيها بما يجل عن الوصف أو يفوت منتهى الحد على أن الهوى يذكر عند الانقضاض خاصة وليس للفرس هذه الصفة فى الحقيقة الا أن يشبه جده فى العدو بحالة انقضاض البازى والعقاب وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها وأما البيت الثانى فقوله ان الاذنين كانهما من ورق موصل وانما أراد بذلك حدتهما وسرعة حركتهما واحساسهما بالصوت كما يحس الورق بخفيف الريح وظاهر التشبيه غير واقع واذا ضمن ماذكرنا من المعنى كان المعنى حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ وانما يجرى مجرى المضمن وليس هذا البيت برائق اللفظ ولا متشاكل فيه لطيفة غير قوله متوجس برقيقتين فان هذا القدر هو حسن وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب انه من باب الاستطراد ونقلنا نظائر ذلك من قول أبى تمام وغيره وقطعة أبى تمام فى نهاية الحسن فى هذا المعنى والذى وقع للبحترى فى هذا البيت عندى ليس بجيد فى لفظ ولا معنى وهو بيت وحش جدا قد صار قذى فى عين هذه القصيدة بل وخزافيها وبالا عليها قد كدر صفاءها وأذهب بهاءها وماءها وطمس بظلمته سناها وماوجه مدح الفرس بأنه لا يعاف قذى من المياه اذا وردها كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار فى قوله ولا يشرب الماء الا بدم واذا كان لهذا الباب مجانبا وعن هذا السمت بعيدا فهلا وصفها بعزة الشرب كما وصفها المتنبى فى قوله

وصول الى المستصعبات بخيله * فلو كان قرن الشمس ماء لاوردا

وهلا سلك فيه مسلك القائل

وانى للماء الذى شابه القذى * اذا كثرت وراده لعيوف

ثم قوله ولو أوردته يوما حشو بارد ثم قوله جدويه الاحول وحش جدا فما أمقت هذا البيت وأبغضه وما أثقله وأسخفه وانما عطى على عينه عيبه وزين له ايراده طمعه فى الاستطراد

وهلا طمع فيه على وجه لا يفض من بهجة كلامه ولا معنى ألفاظه فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر فأما قوله

ذنب كما سحب الرداء يذب عن * عرف وعرف كالقناع المسبل
تتوهم الجوزاء في ارساغه * والبدر فوق جبينه المتهلل

فالبيت الاول وحش الابتداء منقطع عما سبق من الكلام وقد ذكرنا أنه لا يهتدى لوصل الكلام وتظام بعضه الى بعض وانما يتصنع لغير هذا الوجه وكان يحتاج أن يقول ذنب كالرداء فقد حذف الوصل غير متسق ولا مليح وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله ثم قوله كما سحب الرداء قبيح في تحقيق التشبيه وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة الاعلى اضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء وقوله يذب عن عرف ليس بحسن ولا صادق والمحمود ما ذكره امرؤ القيس وهو قوله (فويق الارض ليس بأعزل)

وأما قوله (تتوهم الجوزاء في ارساغه) فهو تشبيه مليح ولكنه لم يسبق اليه ولا انفرد به ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الامور وتشبيه الخيول لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها وأمور مليحة قد ذهبوا اليها وليس ذلك موضع كلام فنتتبع ذلك في اشعارهم تعلم ما وصفت لك واعلم أنا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس لانه ذكر عشرين بيتا في ذلك والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطا الى حد لا يفوت طريقة الشعراء ولو تتبعت أقاويل الشعراء في وصف الخيل علمت انه وان جمع فأوعى وحشر فنادى ففيهم من سبقه في ميدانه ومنهم من ساواه في شأوه ومنهم من داناه فالقبيل واحد والنسيج متشاكل ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من اشعارهم في ذلك لتقف على ما قلت فتجاوزنا الى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة قال

لمحمد بن علي الشرف الذي * لا يلحظ الجوزاء الا من عل
وسحابة لولا تتابع مزنها * فينا الراح المزن غير مبخل
والجود يعذله عليه حاتم * سرفا ولا جود لمن لم يعذل

البيت الاول منقطع عما قبله على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني وفصله بينها وقلة تأنيه لتجويد الخروج والوصل وذلك نقصان في الصناعة وتخلف في البراعة وهذا اذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها وأما اذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له وأما المعنى الذي ذكره فليس بشئ ما سبق اليه وهو شئ مشترك فيه وقد قالوا في نحوه وان مجده سماء السماء وقالوا في نحوه الكثير الذي يصعب نقل جميعه وكما قال المتنبي

وعزمة بعثتها همة زحل * من تحتها بمكان الترب من زحل

وحدثني اسمعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل ثم قال لمن حضره أتدرى من هذا هو الذى قال فى أبيه البحترى (لمحمد بن القاسم الشرف الذى) فذلك يدل على استعظامه للبيت بما مدح به من البيت والبيت الثانى فى تشبيه جوده بالسحاب قريب وهو حديث مكرر ليس بنفك مديح شاعر منه وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة ابداع كما قد بقع لهم فى نحو هذا ولكنه لم يتصنع له وأرسله ارسالا وقد وقع فى المصراع الثانى ضرب من الخلل وذلك أن المزن انما يخل اذا منع نيله فذلك موجود فى كل نيل ممنوح وكلاهما محمود مع الاسعاف فان أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه وان كان انما شبه غالب أحدهما بالآخر وذكر قصور أحدهما عن صاحبه حتى أنه قد يخل فى وقت والآخر لا يخل بحال فهذا جيد وليس فى حمل الالفاظ على الاشارة الى هذا شئ والبيت الثالث وان كان معناه مكررا فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم يشبه ألفاظ المبتدئين وأما قوله

فضل وافضال وما أخذ المدى * بعد المدى كالفاضل المتفضل

سار اذا ادلج العفاة الى الندى * لا يصنع المعروف غير معجل

فالبيت الاول منقطع عما قبله وليس فيه شئ غير التجنيس الذى ليس ببديع لتكرره على كل لسان وقوله ما أخذ المدى فانه لفظ مليح وهو كقول القائل

قد ادرك الآملة بعد الآملة * وروى الحالة بعد الحالة

وكقول امرئ القيس (سموحباب الماء حالا على حال)

ولكنها طريقة مذللة فهو فيها تابع وأما البيت الثانى فقريب فى اللفظ والمعنى وقوله لا يصنع المعروف ليس بلفظ محمود وأما قوله

عال على نظر الحسود كأنما * جذبته أفراد النجوم بأحبل

أو ما رأيت المجد ألقى رحله * فى آل طلحة ثم لم يتحول

فالبيت الاول منكر جدا فى جر النجوم بالارسان موضعه الى العلو والتكلف فيه واقع والبيت الثانى أجنبى عنه بعيد منه وافتتاحه ردىء وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوقيف والبيتان أجنبيان من كلامه غريبان فى قصيدته ولم يقع له فى المدح فى هذه القصيدة شئ جيد ألا ترى أنه قال بعد ذلك

نفسى فداؤك يا محمد من فتى * يوفى على ظلم الخطوب فتنجلى

انى أريد أبا سعيد والعدى * بينى وبين سحابه المتهلل

كأن هذا ليس من طبعه ولا من سبكه وقوله

مضر الجزيرة كلها وربيعة الـ * خابور توعدني وأزد الموصل
قد جدت بالطرف الجواد فشنه * لأخيك من ادد أبيك بمنصل

البيت الاول حسن المعنى وان كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين وهذا المعنى قد يمكن ايراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق منه كقوله

اذا غضبت عليك بنو تميم * رأيت الناس كلهم غضابا

والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف وهو قبيح اللفظ حيث يقول فيه فشنه لاخيك من أدد أبيك ومن أخذه بهذا التعرض لهذا السجع وذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره وأما قوله بعد ذلك في وصف السيف يقول

يتناول الروح البعيد منالها * عفوا ويفتح في القضاء المقفل
بابانة في كل حتف مظلم * وهداية في كل نفس مجهل
ماض وان لم يمضه يد فارس * بطل ومصقول وان لم يصقل

ليس لفظ البيت الاول بمضاء لديباجة شعره ولا له بهجة نظمه لفظا ولا رأثر التكلف عليه وتبين ثقل فيه وأما القضاء المقفل وفتحه فكلام غير محمود ولا مرضي واستعارة لو لم يستعرها كانت أولى به وهلا عيب عليه كما عيب على أبي تمام قوله

فضربت الشتاء في أخدعيه * ضربة غادرته عودا ركوبا

وقالوا يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه وقد اتبعه البحتري في استعارة الاخدع ولو عا باتباعه فقال في الفتح

واني وقد بلغتني الشرف العلا * واعتقت من ذل المطامع أخدعي

ان شيطانه حيث زين له هذه الكلمة تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة الخبيث ما رد ورد ء معاند أراد أن يطلق أعنة الذم فيه ويسرح جيوش العتب اليه ولم يقنع بقفل القضاء حتى جعل للحتف ظلمة تجلى بالسيف وجعل السيف هاديا في النفس المجهل الذي لا يهتدي اليه وليس في هذا مع تحسين اللفظ وتنميقه شئ لان السلاح وان كان معينا فانه يهتدي الى النفس وكان يجب أن يبدع في هذا ابداع المتنبي في قوله

كأن الهام في الهيجا عيون * وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الاسنة من هدوم * فما يخطرن الا في فؤاد

فالاهتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن وفي البيت الاول شئ آخر وذلك أن قوله ويفتح في القضاء في هذا الموضع حشو رديء يلحق بصاحبه اللكنة ويلزمه الهجنة وأما البيت الثالث فانه أصلح هذه الابيات وان كان ذكر الفارس حشوا وتكلفا ولغوا لان

هذا لا يتغير بالفارس والراجل على أنه ليس فيه بديع وأما قوله

يغشى الوغى والترس ليس بجنة * من حده والدرع ليس بمعقل
مصغ الى حكم الردا فاذا مضى * لم يلتفت واذا قضى لم يعدل
متوقد يبرى بأول ضربة * ما أدركت ولو أنها فى يذبل

البيتان الاولان من الجنس الذى يكثر كلامه عليه وهى طريقه الذى يجتنبها وذلك من السبك الكابى والكلام المعتدل الا أنه لم يبدع فيها بشئ وقد زيد عليه فيها ومن قصد الى أن يكمل عشرة أبيات فى وصف السيف فليس من حكمه أن يأتى بأشياء منقولة وأمور مذكورة وسبيله أن يغرب ويبدع كما أبدع المتنبى فى قوله

سله الركض بعدوهن بنجد * فتصدى للغيث أهل الحجاز

هذا فى باب صقاله وأضوائه وكثرة مائه وكقوله

ريان لو قذف الذى أسقيته * لجرى من المهجات بحر مزبد

وقوله مصغ الى حكم الردى ان تأملته مقلوب كان ينبغى أن يقول يصغى الردى الى حكمه كما قال الآخر (فالسيف يأمر والاقدار تنتظر)

وقوله واذا قضى لم يعدل متكرر على ألسنتهم فى الشعر خاصة فى نفس هذا المعنى والبيت الثالث سليم وهو كالاولين فى خلوه عن البديع فأما قوله

فاذا أصاب فكل شئ مقتل * واذا أصيب فماله من مقتل
وكأنما سود الغمال وحمرها * دبت بأيد فى قراه وأرجل

البيت الاول يقصد به صنيعة اللفظ وهو فى المعنى متفاوت لان المضرب قد لا يكون مقتلا وقد يطلق الشعراء ذلك ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبى وأنه بضده

يقتل السيف فى جسم القتيل به * وللسيوف كما للناس آجال

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها فى قصف الرمح طعنا وتقطيع السيف ضربا وفى قوله واذا أصيب فماله من مقتل تعسف لانه يريد بذلك أنه لا يتكسر فالتعبير عما عبر به عن المعنى الذى ذكرناه يتضمن التكلف وضربا من المحال وليس بالنادر والذى عليه الجملة ما حكيناه عن غيره ونحوه قال بعض أهل الزمان

يقصف فى الفارس السمهرى وصد * ر الحسام فريقا فريقا

والبيت الثانى أيضا هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء وأما تصنيعه بسود الغمال وحمرها فليس بشئ ولعله أراد بالحمر الذر والتفصيل باردوالاعراب به منكر وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال كان كذا حين كانت الثريا بحذاء رأسى على سواء أو منحرفا قدر شبر أو نصف

شبراً أو أصبع أو مايقارب ذلك فقيل له هذا من الورع الذى يبغضه الله ويمقته الناس ورب زيادة كانت نقصانا وصفه النمل بالسواد والحمرة فى هذا من ذلك الجنس وعليه خرج بقية البيت فى قوله (دبت بأيد فى قراه وأرجل)

وكان يكفى ذكر الارجل عن ذكر الايدى ووصف الفرند بدب النمل شئ لايشذ عن أحد منهم وأما قوله

وكأن شاهره اذا استضوى به الز * حفان يعصى بالسماك الاعزل

حملت حمائله القديمة بقلة * من عهد عاد غضة لم تذبل

البيت الاول منهما فيه ضرب من التكلف وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم وانما يقول قريشد على الرجال بكوكب فجعل ذلك الكوكب السماك واحتاج الى أن يجعله أعزل للقافية ولو لم يحتج الى ذلك كان خيرا له لان هذه الصفة فى هذا الموضع تفضه من الموضع وموضع التكلف الذى ادعيناه الحشو الذى ذكره من قوله اذا استضوى به الزحفان وكان يكفى أن يقول كأن صاحبه يعصى بالسماك وهذا وان كان قد تعمل فيه للفظ فهو لغو على مابينا وأما البيت الثانى ففيه لغو من جهة قوله حمائله قديمة ولا فضيلة له فى ذلك ثم تشبيه السيف بالبقلة من تشبيهات العامة والكلام الرذل النذل لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن ثم انظر الى هذا المقطع الذى هو بالحى أشبه منه بالفصاحة والى اللكنة أقرب منه الى البراعة وقد بينا أن مراعاة الفواتح والخواتم والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لابد منه وان الاخلال بذلك يخل بالنظم ويذهب رونقه ويحيل بهجته ويأخذ ماءه وبهاءه وقد أطلعت عليك فيما نقلت وتكلفت ماسطرت لان هذا القبيل قبيل موضوع متعمل مصنوع وأصل الباب فى الشعر على أن ينظر الى جملة القصة ثم يتعمل الالفاظ ولا ينظر بعد ذلك الى مواقعها ولا يتأمل مطارحها وقد يقصد تارة الى تحقيق الاغراض وتصوير المعانى التى فى النفوس ولكنه يلحق بأصل بابه ويميل بك الى موضعه وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل وان أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا فى ذلك بما يقع اليك ان كنت من أهل الصنعة مما يطول على نقله وكذلك فى السيف وذكر لى بعض أهل الادب أن أحسن قطعة فى السيف قول أبى الهول الحميرى

حاز صمصامة الزبيدى من * بين جميع الانام موسى الامين

سيف عمرو وكان فيما سمعنا * خير ما أطبقت عليه الجفون

أخضر اللون بين برديه حد * من ذعاف تمس فيه المنون

أوقدت فوقه الصواعق نارا * ثم شابت له الذعاف القيون
فاذا ما شهرته بهر الشم * س ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الابصار كالقبس المشـ ـعل لا تستقيم فيه العيون
وكان الفرند والرونق الجا * ري في صفحتيه ماء معين
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيـ * ـجاء يعصى به ونعم القرين
ما يبالي اذا انتحاه لضرب * أشمال سطت به أم يمين

وانما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته ومن أهل عصره ومن هو في مضماره أو في منزلته ومعرفته أجناس الكلام والوقوف على أسراره والوقوع على مقداره شئ وان كان عزيزا وأمر وان كان بعيدا فهو سهل على أهله مستجيب لاصحابه مطيع لاربابه ينقدون الحروف ويعرفون الصروف وانما يتقى الشبهة في ترتيب الحال بين البحتري وأبي تمام وابن الرومي وغيره ونحن وان كنا نفضل البحتري بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه وتقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقد قوله والشعر قبيل ملتمس مستدرك وأمر ممكن منطبع ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم أو يسموا اليه الفكر أو يطمع فيه طامع أو يطلبه طالب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وكنت قد ذكرت لك قبل هذا انك ان كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدما أمكنك الوقوف على ما ذكرناه والنفوذ فيما وصفناه والا فاجلس في مجلس المتقلدين وارض بمواقف المتحيرين ونصحت لك حيث قلت انظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن الجوهر وبدائع الياقوت ودقائق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها ولكل شئ طريق يتوصل اليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك وأغمض وأدق وألطف وتصوير ما في النفس وتشكيك ما في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وان كان قد يقع بالاشارة ويحصل بالدلالة والامارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح فللاشارات أيضا مراتب وللسان منازل رب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ورب وصف يربو عليه ويتعداه ورب وصف يقصر عنه ثم اذا صدق الوصف انقسم الى صحة واتقان وحسن واحسان والى اجمال وشرح والى استيفاء وتقريب والى غير ذلك من الوجوه وكل مذهب وطريق وله باب وسبيل فوصف الجملة الواقعة كقوله تعالى لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا والتفسير كقوله ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا

Digitized by Google

الى آخر الآيات فى هذا المعنى وكنحو قوله يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد هذا مما يصور الشئ على جهته ويمثل أهوال ذلك اليوم ومما يصور لك الكلام الواقع فى الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا قالوا انا الى ربنا لمنقلبون انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين وقال فى موضع آخر انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وهذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله الجازع لما مسه ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وقوله قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وكقوله فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وتقصى أقسام ذلك مما يطول ولم أقصد استيفاء ذلك وانما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل وأشرت اليك بما أشرت لتتأمل وانما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحترى لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره ويقدمونه على من فى عصره ومنهم من يدعى له الاعجاز غلوا ويزعم أنه يناغى النجم فى قوله علوا والملحدة تستظهر بشعره وتتكثر بقوله وتدعى كلامه من شبهاتهم وعباراته مضافا الى ما عندهم من ترهاتهم فبينا قدر درجته وموضع رتبته وحد كلامه وهيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه وأن يكون الليل كالنهار والباطل كالحق وكلام رب العالمين ككلام البشر فان قال قائل فقد قدح الملحد فى نظم القرآن وادعى عليه الخلل فى البيان وأضاف اليه الخطأ فى المعنى واللفظ وقال ما قال فهل من فصل قيل الكلام على مطاعن الملحدة فى القرآن مما قد سبقنا اليه وصنف أهل الأدب فى بعضه فكفوا وأتى المتكلمون على ما وقع اليهم فشفوا ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه فى كتابنا وأما الغرض الذى صنفنا فيه فى التفصيل والكشف عن اعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذى قصدنا وقدرجونا أن يكون ذلك مغنيا وواقعا وان سهل الله لنا ما نويناه من املاء معانى القرآن ذكرنا فى ذلك ما يشتبه من الجنس الذى ذكروه لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه فانما يقع على جهل القوم بالمعانى أو بطريقة كلام العرب وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ومهدنا الطريق فمن كمل طبعه للوقوع على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيناه ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل والحكم بين فضل زهير والنابغة أو الفضل بين البحترى وأصحابه ولم يعرف سخف

مسيلمة فى نظمه ولم يعلم أنه من الباب الذى يهزأ به ويسخر منه كشعر أبى العيس فى جملة الشعر وشعر على بن صلاءة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا والحكم على ما بينا فان قال قائل فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الاشعر والا أبلغ قيل له هذا أيضا خارج عن غرض هذا الكتاب وقد تكلم فيه الأدباء ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب ويفرد له باب وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل وليس لقائل أن يقول قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمده فى الفصاحة والنظم العجيب ولا يبلغ عندكم حد المعجز فلم قضيتم بما قضيتم به فى القرآن دون غيره من الكلام وانما لم يصح هذا السؤال وما نذكر فيه من اشعار فى نهاية الحسن وخطب ورسائل فى غاية الفضل لأنا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فيها والمساماة عليها والتنافس فى طرقها والتنافر فى بابها وكان البون بين البعض والبعض فى الطبقة الواحدة قريبا والتفاوت خفيفا وذلك القدر من السبق ان ذهب عند الواحد لم ييأس منه الباقون ولم ينقطع الطمع فى مثله وليس كذلك سمت القرآن لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته وأن الكل فى العجز عنه على حد واحد وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه والباب الذى لا يذهب عنه وأنت تجد قوما يرون كلامه قريبا ومنهاجه معيبا ونطاق قوله ضيقا حتى يستعين بكلام غيره ويفزع الى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ومثل نادر وحكمة ممهدة منقولة وقصة عجيبة مأثورة وأما كلامه فى أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظ يسيرة فاذا أحوج الى تطويل الكلام خاليا عن شئ يستعين به فيخلطه بقوله من قول غيره كان كلاما ككلام غيره فان أردت أن تحقق هذا فانظر فى كتبه فى نظم القرآن وفى الرد على النصارى وفى خبر الواحد وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى هل تجد فى ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح على أن متأخرى الكتاب قد نازعوه فى طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه ومنهم من أبر عليه اذ باراه هذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلكه وأخذ طريقه فلم يقصر عنه ولعله قد بان تقدمه عليه لأنه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ويكملها على شروط صنعته ولا يقتصر على أن يأتى بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله فى كتبه متى ذكر من كلامه سطرا أتبعه من كلام الناس أوراقا واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا وهذا يدلك على أن الشئ اذا استحسن اتبع واذا استملح قصده وتعمد وهذا الشئ يرجع الى الأخذ بالفضل والتنافس فى التقدم فلو كان فى مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده لكثرت المعارضات ودامت المنافسات فكيف وهنالك دواع لا انتهاء لها وجوالب لا حد لكثرتها لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا الى تكذيبه ثم الى قطع المحامين دونه عنه

Digitized by Google

أو تنفيرهم عليه وادخال الشبهات على قلوبهم وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس ونصب الأرواح والأخطار بالأموال والذرارى فى وجه عداوته ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربته وطول منافسته ومجاذبته وهذا الذى عرضناه على قلبك يكفى ان هديت لرشدك ويشفى ان دللت على قصدك ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد انه لا معرفة الا بهدايته ولا عصمة الا بكفايته وهو على ما يشاء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿ فصل ﴾

فان قال قائل قد يجوز أن يكون أهل عصر النبى صلى الله عليه وسلم قد عجزوا عن الأتيان بمثل القرآن وان كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا قيل هذا سؤال معروف وقد أجيب عنه بوجوه منها ما هو صواب ومنها ما فيه خلل لان من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدرون على معارضته فى الاخبار عن الغيوب ان قدروا على مثل نظمه فقد سلم المسئلة لانا ذكرنا أن نظمه معجز لا يقدر عليه فاذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل عن مراده والوجه أن يقال فيه طرق منها أنا اذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الاتيان بمثله فمن بعدهم أعجز لان فصاحة أولئك فى وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم فاما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا ومنها أنا قد علمنا عجز أهل سائر الاعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الاول والطريق فى العلم بكل واحد من الامرين طريق واحد لان التحدى فى الكل على جهة واحدة والتنافر فى الطباع على حد والتكلف على منهاج لا يختلف ولذلك قال الله تبارك وتعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

﴿ فصل فى التحدى ﴾

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات اذا ظهرت على الانبياء أن يدعوا فيها انها من دلالتهم وآياتهم لأنه لا يصح بعثة النبى من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية لأن النبى لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشئ آخر سوى البرهان الذى يظهر عليه فيستدل به على صدقه فاذا ذكر لهم ان هذه آيتى وكانوا عاجزين عنها صح له ما ادعاه ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له وليس يكون ذلك معجزا بأن يتحداهم الى أن يأتوا فاذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزا وانما احتيج فى باب القرآن الى التحدى لان من الناس من لا يعرف كونه معجزا فانما يعرف أولا اعجازه بطريقه لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته وانما يحتاج الى علم وطريق يتوصل به الى معرفة كونه معجزا فان كان لا يعرف بعضهم اعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل به ومتى رأى أهل ذلك

اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدى اليه والتقريع به والتمكين منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصا ثعبانا تتلقف ما يأفكون وأما ما كان من أهل صنعة العربية والتقدم فى البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق فانه يعرف حين يسمعه عجزه عن الاتيان بمثله ويعرف أيضا أهل عصره ممن هو فى طبقته أو يدانيه فى صناعته عجزهم عنه فلا يحتاج الى التحدى حتى يعلم به كونه معجزا ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزا حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه لم يجز أن يعرف النبى صلى الله عليه وسلم أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدى اليه واذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهى الى التحدى الى أقصاهم وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه ثم يعرف حينئذ كونه معجزا وهذا القول ان قيل أخش ما يكون من الخطأ فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة فى معرفة اعجاز القرآن بأنفسهم منزلة من رأى اليد البيضاء وفلق البحر بأن ذلك معجز وأما من لم يكن من أهل الصنعة فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة يعرف بها كونه معجزا فيساوى حينئذ أهل الصنعة فيكون استدلالهما فى تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواه اذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه فأما من قدر أن القرآن لا يصير معجزا الا بالتحدى اليه فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات حتى يقع التحدى اليها والحض عليها ثم يقع العجز عنها فيعلم حينئذ انها معجزات وقد سلف من كلامنا فى هذا المعنى ما يغنى عن الاعادة ويبين ما ذكرناه فى غير البليغ أن الاعجمى الآن لا يعرف اعجاز القرآن الا بأمور زائدة على الأعجمى الذى كان فى ذلك الزمان مشاهدا له لأن من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولا أن العرب عجزوا عنه وانما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة اليه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب اليه فعجزوا عنه ويحتاج فى النقل الى شروط وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزا كذلك لا يصير معجزا بأن يعلم العربى الذى ليس ببليغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم بل هو معجز فى نفسه وانما طريق معرفة هذا وقوعهم على العلم لعجزهم عنه

﴿ فصل فى قدر المعجز من القرآن ﴾

الذى ذهب اليه عامة أصحابنا وهو قول أبى الحسن الأشعرى فى كتبه أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها قال فاذا كانت الآية بقدر حروف سورة وان كانت سورة الكوثر فذلك معجز قال ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر وذهب المعتزلة الى أن كل سورة برأسها فهى معجزة وقد

حكى عنهم نحو قولنا الا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل شرط الآيات الكثيرة وقد علمنا أنه تحداهم تحديا الى السور كلها ولم يخص ولم يأتوا الشئ منها بمثل فعلم أن جميع ذلك معجز وأما قوله عز وجل فليأتوا بحديث مثله فليس بمخالف لهذا لأن الحديث التام لا تحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة وهذا يؤكد ما ذهب اليه أصحابنا ويؤيده وان كان قد يتأول قوله فليأتوا بحديث مثله على أن يكون راجعا الى القبيل دون التفصيل وكذلك يحمل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله على القبيل لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الآتيان بجميعه من أوله الى آخره فان قيل هل تعرفون اعجاز السور القصار بما تعرفون به اعجاز السور الطوال وهل تعرفون اعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذى قدرتموه بمثل ما تعرفون به اعجاز سورة البقرة ونحوها فالجواب أن أبا الحسن الاشعرى رحمه الله أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز العرب عنها وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول ان ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفا والطريقة الاولى أسد وليس هذا الذى ذكرناه أخيرا بمناف له لأنه لا يمتنع أن يعلم اعجازه بطرق مختلفة تتوافى عليه وتجتمع فيه واعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضربا من الفائدة لأن الطريقة الاولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزا موجود فى كل سورة صغرت أو كبرت فيجب أن يكون الحكم فى الكل واحدا والطريقة الاخيرة تتضمن تعذر معرفة اعجاز القرآن بالطريقة التى سلكناها فى كتابنا من التفصيل الذى بينا فيما يعرف به فى الكلام الفصاحة وتبين فيه البلاغة حتى يعلم ذلك بوجه آخر فيستوى فى هذا القدر البليغ وغيره فى أن لا يعلمه معجزا حتى يستدل به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء من التقدم فى الصنعة وهذا غير ممتنع ألا ترى أن الاعجاز فى بعض السور والآيات أظهر وفى بعضها أغمض وأدق فلا يفتقر البليغ فى النظر فى حال بعضها الى تأمل كثير ولا بحث شديد حتى يتبين له الاعجاز ويفتقر فى بعضها الى نظر دقيق وبحث لطيف حتى يقع على الجلية ويصل الى المطلب ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه فى بعض السور فيحتاج أن يفزع فيه الى اجماع أو توقيف أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه فان ادعى ملحد أو زعم زنديق أنه لا يقع العجز عن الاتيان بمثل السور القصار أو الآيات بهذا المقدار قلنا له ان الاعجاز قد حصل بما بيناه وعرف بما وقفنا عليه من عجز العرب عنه ثم فيه شئ آخر وهو أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد لانه يزعم أنه ليس فى القرآن كله اعجاز فكيف يجوز أن يناظره على تفصيله واذا ثبت لنا معه اعجازه فى السور الطوال قامت الحجة عليه وثبتت المعجزة ولا معنى لطلبه لكثرة الادلة والمعجزات ونحن نعلم

أن اعجاز البعض بما بيناه والبعض الآخر بأنه اذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك الا قولنا لا نا عرفنا فى البعض الاعجاز بما بينا ثم عرفنا فى الباقى بالتوقيف ونحو ذلك وليس بممتنع اختلاف حال الكلام حتى يكون الاعجاز على بعضه أظهر وفى بعضه أغمض ومن آمن ببعض دون بعض كان مذموما على ما قال الله تعالى أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض وقال وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع وان كنا نقول انه يدل على أن الشفاء فى جميعه واعلم أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبليغ ولذلك كانوا يسمون الكلمة يتيمة ويسمون البيت الواحد يتيما سمعت اسماعيل بن عباد يقول سمعت أبا بكر بن مقسم يقول سمعت ثعلبا يقول سمعت الفراء يقول العرب تسمى البيت الواحد يتيما وكذلك يقال الدرة اليتيمة لانفرادها فاذا بلغ البيتين والثلاثة فهى نتفة والى العشرة تسمى قطعة واذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيدا وذلك مأخوذ من المخ القصيد وهو المتراكم بعضه على بعض وهو ضد الرار ومثله الرئيد انتهت الحكاية ثم استشهد بقول لبيد

فتذكرا ثقلا رئيدا بعدما ★ ألفت ذكاء يمينها فى كافر

يريد بيض النعام لأنه ينضد بعضه على بعض وكذلك يقع فى الكلام البيت الوحشى النادر والمثل السائر والمعنى الغريب والشئ الذى لو اجتهد له لم يقع عليه فيتفق له ويصادفه قال لى بعض علماء هذه الصنعة وجاريته فى ذلك ان هذا مما لا سبب له يخصه وانما سببه القرارة فى أصل الصنعة والتقدم فى عيون المعرفة فاذا وجد ذلك وقع له من الباب مايطرد عن حساب ومايشذ عن تفصيل الحساب فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز فان ذلك صحيح

★(فصل فى أنه هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة)★

ذهب أبو الحسن الأشعرى الى أن ظهور ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم يعلم ضرورة وكونه معجزا يعلم باستدلال وهذا المذهب محكى عن المخالفين والذى نقوله فى هذا ان الأعجمى لا يمكنه أن يعلم اعجازه الا استدلالا وكذلك من لم يكن بليغا فأما البليغ الذى قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فانه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الاتيان بمثله ويعلم عجز غيره بمثل مايعرف عجز نفسه كما أنه اذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك وهو يعلم عجز غيره استدلالا

﴿ فصل فيما يتعلق به الاعجاز ﴾

ان قال قائل بينوا لنا ما الذى وقع التحدى اليه أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم

بالذات أو غير ذلك قيل الذى تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف التى هى نظم القرآن منظومة كنظمها متتابعة كتتابعها مطردة كاطرادها ولم يتحدهم الى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له وان كان كذلك فالتحدى واقع الى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة التى هى عبارة عن كلام الله تعالى فى نظمها وتأليفها وهى حكاية لكلامه ودلالات عليه وأمارات له على أن يكونوا مستأنفين لذلك لاحاكين بما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ولا يجب أن يقدر مقدر أو يظن ظان أنا حين قلنا ان القرآن معجز فانه تحداهم الى أن يأتوا بمثله أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات وقد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزا لكونه عبارة عن الكلام القديم لأن التوراة والانجيل عبارة عن الكلام القديم وليس ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وكذلك مادون الآية كاللفظة عبارة عن كلامه وليست بمنفردها بمعجزة وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم الى مثل كلامه القديم القائم بنفسه والذى عول عليه مشايخنا ماقدمنا ذكره وعلى ذلك أكثر مذاهب الناس ولم يجب أن نفسر ونذكر موجب هذا المذهب الذى حكيناه ومايتصل به لأنه خارج عن غرض كتابنا لأن الاعجاز واقع فى نظم الحروف التى هى دلالات وعبارات عن كلامه والى مثل هذا النظم وقع التحدى فبينا وجه ذلك وكيفية مايتصور القول فيه وأزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة أو حروف غير منظومة أو شئ مؤلف أو غير ذلك مما يصح أن يتوهم على ماسبق من اطلاق القول فيما مضى

فصل فى وصف وجوه من البلاغة

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام الايجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان فأما الايجاز فانما يحسن مع ترك الاخلال باللفظ والمعنى فيأتى باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة وذلك ينقسم الى حذف وقصر فالحذف الاسقاط للتخفيف كقوله واسأل القرية وقوله طاعة وقول معروف وحذف الجواب كقوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى كأنه قيل لكان هذا القرآن والحذف أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب كل مذهب فى القصد من الجواب والايجاز بالقصد كقوله ولكم فى القصاص حياة وقوله يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو وقوله انما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله والاطناب فيه بلاغة فأما التطويل ففيه عى وأما التشبيه بالعقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل كقوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ وقوله مثل الذين

كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف وقوله واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وقوله انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وقوله انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر وقوله فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان وقوله انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وقوله وجنة عرضها كعرض السماء والارض وقوله مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا وقوله تعالى فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث وقوله كأنهم أعجاز نخل خاوية وقوله مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت وقوله وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام وقوله خلق الانسان من صلصال كالفخار ونحو ذلك ومن ذلك باب الاستعارة وهو بيان التشبيه كقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وكقوله فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين وكقوله انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية وقوله ولما سكت عن موسى الغضب وكقوله فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة وقوله بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق فالدمغ والقذف مستعار وقوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وقوله وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم وقوله فذو دعاء عريض وقوله تضع الحرب أوزارها وقوله والصبح اذا تنفس وقوله مستهم البأساء والضراء وقوله فنبذوه وراء ظهورهم وقوله أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا وقوله حصيدا خامدين وقوله ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وقوله وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وقوله لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك وقوله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر وقوله فضربنا على آذانهم يريد أن لا احساس بآذانهم من غير صمم وقوله ولما سقط فى أيديهم وهذا أوقع من اللفظ الظاهر وأبلغ من الكلام الموضوع وأما التلاؤم فهو تعديل الحروف فى التأليف وهو نقيض التنافر كقول الشاعر

وقبر حرب بمكان قفر ✽ وليس قرب قبر حرب قبر

قالوا هو من شعر الجن حروفه متنافرة لا يمكن انشاده الا بتتعتع فيه والتلاؤم على ضربين أحدهما فى الطبقة الوسطى كقوله

رمتنى وستر الله بينى وبينها ✽ عشية أن أم الكاس رميم

Digitized by Google

رميم الذى قالت لجارات بيتها * ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتنى رميتها * ولكن عهدى بالنضال قديم

قالوا والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله وان كان بعض الناس أحسن احساسا من بعض كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض والتلاؤم حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ ووقع المعنى فى القلب وذلك كالخط الحسن والبيان الشافى والمتنافر كالخط القبيح فاذا انضاف الى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الاعجاز لمن كان جيد الطبع وبصيرا بجودة الكلام كما يظهر له أعلى طبقة الشعر والمتنافر ذهب الخليل الى أنه من بعد شديد أو قرب شديد فاذا بعد فهو كالظفر واذا قرب جدا كان بمنزلة مشى المقيد ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها وأما الفواصل فهى حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها افهام المعانى وفيها بلاغة والاسجاع عيب لأن السجع يتبع المعنى والفواصل تابعة للمعانى والسجع كقول مسيلمة ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على حروف متقاربة ولا تحتمل القوافى ما تحتمل الفواصل لأنها ليست فى الطبقة العليا فى البلاغة لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافى واقامة الوزن وأما التجانس فانه بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد وهو على وجهين مزاوجة ومناسبة فالمزاوجة كقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقوله ومكروا ومكر الله وكقول عمرو بن كلثوم

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما المناسبة فهى كقوله تعالى ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم وقوله يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وأما التصريف فهو تصريف الكلام فى المعانى كتصريفه فى الدلالات المختلفة كتصريف الملك فى معانى الصفات فصرف فى معنى مالك وملك وذى الملكوت والمليك وفى معنى التمليك والتملك والاملاك وتصريف المعنى فى الدلالات المختلفة كما كرر من قصة موسى فى مواضع وأما التضمين فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هى عبارة عنه وذلك على وجهين تضمين توجبه البنية كقولنا معلوم يوجب أنه لا بد من عالم وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح الا به كالصفة بضارب يدل على مضروب والتضمين كله انجاز والتضمين الذى تدل عليه دلالات القياس أيضا انجاز وذكر أن بسم الله الرحمن الرحيم من باب التضمين لأنه تضمن تعليم الاستفتاح فى الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى أو التبرك باسمه وأما المبالغة فهى الدلالة على كثرة المعنى وذلك على وجوه منها مبالغة فى الصفة المبنية لذلك كقولك رحمن عدل عن

ذلك للمبالغة وكقوله غفار وكذلك فعال وفعول كقولهم شكور وغفور وفعيل كقوله رحيم وقدير ومن ذلك أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة كقوله خالق كل شئ وكقوله فأتى الله بنيانهم من القواعد وكقوله ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكقوله وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين وقد يدخل فيه الحذف الذي تقدم ذكره للمبالغة وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام كالدم وحال واشارة وعلامة ويقع التفاضل في البيان ولذلك قال عز من قائل الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وقيل أعيا من باقل سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها فأراد أن يقول بأحد عشر فأشار بيديه مادا أصابعه العشر ثم أدلع لسانه وأفلت الظبي من يده ثم البيان على مراتب قلنا قد كما حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ اعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب مما مضت أمثلته في الشعر ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عددناها في هذا الفصل واعلم أن الذي بيناه قبل هذا وذهبنا اليه هو سديد وهو أن هذه الامور تنقسم فمنها ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له ويدرك بالتعلم فما كان كذلك فلا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن به وأما ما لا سبيل اليه بالتعلم والتعمل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على اعجازه ونحن نضرب لذلك أمثلة لتقف على ما ذهبنا اليه وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه تعرف به البلاغة وذلك مسلم ولكن ان قلنا ما وقع من التشبيه في القرآن معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الاشعار ما لا يخفى عليك وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء وكذلك كثير من وجوه البلاغة قد بينا أن تعلمها يمكن وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره فان كان انما يعني هذا القائل أنه اذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه الى متصرفاته على أتم البلاغة وأبدع البراعة فهذا مما لا نأباه بل نقول به وانما ننكر أن يقول قائل ان بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الاعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام ويفضي اليه مثل ما يقول ان ما أقسم به وحده بنفسه معجز وان التشبيه معجز وان التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه فان ادعى اعجازها لالفاظها ونظمها وتأليفها فاني لا أدفع ذلك وأصححه ولكن لا أدعي اعجازها لموضع التشبيه وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك الى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الاعجاز يتعلق به كالبيان وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس ولذلك

قال هذا بيان للناس وقال تبيانا لكل شئ وقال بلسان عربي مبين فكرر في مواضع ذكره أنه مبين فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ماجمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول ونصوره نصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لاينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة واذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس مايذهل ويبهج ويقلق ويؤنس ويطمع ويؤيس ويضحك ويبكي ويحزن ويفرح ويسكن ويزعج ويشجي ويطرب ويهز الأعطاف ويستميل نحوه الاسماع ويورث الأريحية والعزة وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودا ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيدا وله مسالك في النفوس لطيفة ومداخل الى القلوب دقيقة وبحسب مايترتب في نظمه ويتنزل في موقعه ويجرى على سمت مطلعه ومقطعه يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته وكذلك على حسب مصادره يتصور وجوه موارده وقد ينبئ الكلام عن محل صاحبه ويدل على مكان متكلمه وينبه على عظيم شأن أهله وعلى علو محله ألا ترى أن الشعر في الغزل اذا صدر عن محب كان أرق وأحسن واذا صدر عن متغزل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمداجاة وأخبر عن خبيه في المزايا وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع فيعلم وجه صدره ويدل على كنهه وحقيقته وقد يصدر عن المتشبه ويخرج عن المتصنع فيعرف من حاله ماظن أنه يخفيه ويظهر من أمره خلاف ما يبديه وأنت تعرف قول المتنبي

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ● والحرب والطعن والقرطاس والقلم

من الواقع في القلب لما يعلم أنه من أهل الشجاعة مالا تجده للبحتري في قوله

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي ● بعقرقس والمشرفية مشهدي

وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب في الفخر وغيره مالا تجده لغيره لأنه اذا قال

اذا شئت أو قرت البلاد حوافر ● وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم سماء النقع حتى كأنه ★ دخان واطراف الرماح شرار

وقال

قد ترديت بالمكارم حولي ● وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش اذا غزوت وحيدا ★ ووحيد في الجحفل الجرار

وقال

أيها السائلي عن الحسب الاطـــيب مافوقه لخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحقـــ وأهل القرى فماذا تريد
ولنا ما أضاء صبح عليـــه ★ وأتتـــه رايات ليـــل سود

وكما أنشدنا الحسن بن عبد الله قال أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز قصيدته التي يقول فيها

أنا ابن الذي سادهم في الحيا ٭ ة وسادهم بي تحت الثرى
ومالي في أحد مرغب ٭ بلى في يرغب كل الورى
وأسهر للمجد والمكرما ٭ ت اذا اكتحلت أعين بالكرى

فانظر في القصيدة كلها ثم في جميع شعره تعلم أنه ملك الشعر وأنه يليق به من الفخر خاصة ثم مما يتبعه مما يتعاطاه مما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواه ولم أحب أن أكثر عليك فأطول الكتاب بما يخرج عن غرضه وكما ترى من قول أبي فراس الحمداني في نفسك اذا قال

ولا أصبح الحي الخلوف بغارة ٭ ولا الجيش ما لم يأته قبلي النذر
ويارب دار لم تخفني منيعة ٭ طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الاذيال نحوي لقيتها ٭ فلم يلقها جاف اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله ٭ وأبت ولم يكشف لابياتها ستر
وما راح يطغيني بأثوابه الغنى ٭ ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبغي وفوره ٭ اذا لم أفر وفري فلا وفر الوفر

والشيء اذا صدر من أهله وبدا من أصله وانتسب الى ذويه سلم في نفسه وبان نفاسته وشوهد أثر الاستحقاق فيه واذا صدر من متكلف وبدا من متصنع بان أثر الغرابة عليه وظهرت مخايل الاستيحاش فيه وعرف شمائل التخير منه انا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة وتمكن البطالة وموقع كلامه في وصف ما هو بسبيله من أمر العبارة ووصف الخمر والخمار كما نعرف موقع كلام ذي الرمة في وصف المهامه والبوادي والجمال والانساع والأزمة وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطلول والرباع والوحش فتفكر في قوله

دع الاطلال تسقيها الجنوب ٭ وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا ٭ تخب به النجيبة والنجيب
بلاد بنتها عشر وطلح ٭ وأكثر صيدها ضبع وذيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهوا ٭ ولا عيشا فعيشهم جديب
دع الالبان يشربها رجال ٭ رقيق العيش عندهم غريب
اذا راب الحليب فبل عليه ٭ ولا تخرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول ٭ يطوف بكأسها ساق أديب
كأن هديرها في الدن يحكي ٭ قراءة القس قابلة الصليب
أعاذل أقصري عن طول لومي ٭ فراجي توبتي عندي يخيب

Digitized by Google

تعيبين الذنوب وأى حر * من الفتيان ليس له ذنوب

وقوله صفة الطلول بلاغة العدم * فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وسمعت الصاحب اسماعيل بن عباد يقول سمعت برلكويه الزنجانى يقول أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى

ودع هريرة ان الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وكان وصف فيها الطلل قال برلكويه فقال لى هلال فقلت بديها

اذا سمعت فتى يبكى على طلل * من أهل زنجان فاعلم أنه طلل

وانما ذكرت لك هذه الامور لتعلم أن الشئ فى معدنه أعز وفى مظانه أحسن والى أصله أنزع وبأسبابه أليق وهو يدل على ما صدر منه وينبه ما انتج عنه ويكون قراره على موجب صورته وأنواره على حسب محله ولكل شئ حد ومذهب ولكل كلام سبيل ومنهج وقد ذكر أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى كلام مسيلمة ما أخبرتك به فقال ان هذا كلام لم يخرج من آل فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الالهية يتميز عما لم يكن كذلك ثم رجع الكلام بنا الى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان ولو لم يكن فيه الا ما من به الله على خلقه بقوله خلق الانسان علمه البيان فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه وأكمله وأعلاه وأبلغه وأسناه تأمل قوله تعالى افنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين فى شدة التنبيه على تركهم الحق والاعراض عنه وموضع امتنانه بالذكر والتحذير وقوله ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون وهذا بليغ فى التحسير وقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر معودين لمخالفة النهى والامر وقوله الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين هو فى نهاية الوضع من الخلة الا على التقوى وقوله ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وهذا نهاية فى التحذير من التفريط وقوله أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير هو النهاية فى الوعيد والتهديد وقوله وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى نهاية فى الوعيد وقوله وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون نهاية فى الترغيب وقوله ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض وكذلك قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا نهاية فى الحجاج وقوله وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير نهاية فى الدلالة على علمه بالخفيات ولا وجه للتطويل فان بيان الجميع فى الرفعة وكبر المنزلة على سواء وقد

ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الاعجاز وهو معجز من القرآن وما حكيناه عن صاحب الكلام من المبالغة فى اللفظ فليس ذلك بطريق الاعجاز لأن الوجوه التى ذكرها قد تتفق فى كلام غيره وليس ذلك بمعجز بل قد يصح أن يقع فى المبالغة فى المعنى والصفة وجوه من اللفظ يثمر الاعجاز وتضمين المعانى أيضا قد يتعلق به الاعجاز اذا حصلت للعبارة طريق البلاغة فى أعلى درجتها وأما الفواصل فقد بينا أنه يصح أن يتعلق بها الاعجاز وكذلك قد بينا فى المقاطع والمطالع نحو هذا و بينا فى تلاؤم الكلام ماسبق من صحة تعلق الاعجاز به والتصرف فى الاستعارة البديعة يصح أن يتعلق به الاعجاز كما يصح مثل ذلك فى حقائق الكلام لأن البلاغة فى كل واحد من البابين تجرى مجرى واحدا وتأخذ مأخذا مفردا وأما الايجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما الاعجاز كما يتعلق بالحقائق والاستعارة والبيان فى كل واحد منهما مالا يضبط حده ولا يقدر قدره ولا يمكن التوصل الى ساحل بحره بالتعلم ولا يتطرق الى غوره بالتسبب وكل ما يمكن تعلمه ويتهيأ تلقنه ويمكن تخليصه و يستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الاعجاز به ولذلك قلنا ان السجع مما ليس يلتمس فيه الاعجاز لان ذلك أمر محدود وسبيل مورود ومتى تدرب الانسان به واعتاده لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه وكذلك التجنيس والتطبيق متى أخذ أخذهما وطلب وجههما استوفى ماشاء ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه كما أولع بذلك أبو تمام والبحترى وان كان البحترى أشغف بالمطابق وأقل طلبا للمجانس فان قال قائل هلا قلت ان هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل اليها بالتعلم ولا تملك بالتعمل كما ذكرتم فى البيان وغير ذلك قلنا لو عمدنا الى كتاب الاجناس ونظرنا فى كتاب العين لم يتعذر عليه التجنيس الكثير فأما الاطباق فهو أقرب منه وليس كذلك البيان والوجوه التى رأينا الاعجاز فيها لانها تستوفى بالتعلم فان قيل فالبيان قد يتعلم قيل ان الذى يمكن أن يتوصل اليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس و يتناهى فيه العادات وهو كما يعلم من مقادير القوى فى حمل الثقيل وأن الناس يتقاربون فى ذلك فيرمون فيه الى حد فاذا تجاوزوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطى ولم يقدروا على التعدى الا أن يحصل ما يخرق العادة و ينقض العرف ولن يكون ذلك الا للدلالة على النبوات على شروط فى ذلك والقدر الذى يفوت الحد فى البيان و يتجاوز الوهم و يشذ عن الصنعة و يقذفه الطبع فى النادر القليل كالبيت البديع والقطعة الشريفة التى تتفق فى ديوان شاعر والفقرة تتفق فى لسان كاتب حتى يكون الشاعر ابن بيت و بيتين أو قطعة أو قطعتين والاديب شهيد كلمة أو كلمتين وذلك أمر قليل ولو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك و يستمر على ذلك المنهج أمكن أن يدعى فيه الاعجاز ولكنك لن

Digitized by Google

كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الابيات الشوارد والكلمات الفرائد وأمهات القلائد فان أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتهم رضية لم تجد ذلك في الدواوين ولم تظفر بذلك الى يوم الدين ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ولفظة بديعة وانما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها وأحلنا أن يتمكنوا من حد في البلاغة ومقدار في الخطابة وهذا كما قلناه من أن سورة الشعر قد تتفق في القرآن وان لم يكن له حكم الشعر فأما قدر المعجز فقد بينا أنها السورة طالت أو قصرت وبعد ذلك خلاف من الناس من قال مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز وعندنا كل واحد من الامرين معجز والدلالة عليه ما تقدم والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك فلذلك لم نحكم باعجازه وما صح أن تتبين فيه البلاغة ومحصولها الا بأنه في الابلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظا وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام فاذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا وبليغا فاذا تجاوز حد البلاغة الى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة وانتهى الى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة صح أن يكون له حكم المعجزات وجاز أن يقع موقع الدلالات وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر فان قيل فاذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تباين جميع ديوانه في البلاغة ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط لم يجد الى ذلك سبيلا وله سبب في الجملة وهو التقدم في الصنعة لانه يتفق من المتأخر فيها ما لا قلتم انه اذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وسمت تلك القطعة وهلا قلتم ان القرآن من هذا الباب فالجواب انا لم نجد أحدا بلغ الحد الذي وصفتم في العادة وهذا الناس وأهل البلاغة اشعارهم عندنا محفوظة وخطبهم منقولة ورسائلهم مأثورة وبلاغاتهم مروية وحكمهم مشهورة وكذلك أهل الكهانة والبلاغة مثل قس بن ساعدة وسحبان وائل ومثل شق وسطيح وغيرهم كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ولا خطابة خطيب ولا براعة شاعر مفلق ولا كتابة كاتب مدقق فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يدانى القرآن في البلاغة أو يشاكله في الاعجاز مع ما وقع من التحدي اليه المدة الطويلة وتقدم من التقريع بالمجازاة الامد المديد وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الامر وعجز الكل عنه وقفوا دونه حيارى يعرفون عجزهم وان جهل قوم سببهم ويعلمون نقصهم وان أغفل قوم وجهه رأينا أنه ناقض للعادة ورأينا أنه خارق للعروف في

الحيلة وخرق العادة انما تقع بالمعجزات على وجه اقامة البرهان على النبوات وعلى أن من ظهرت عليه وقعت موقع الهداية اليه صادق فيما يدعيه من نبوته ومحق فى قوله ومصيب فى هديه قد سادت له الحجة البالغة والكلمة التامة والبرهان النير والدليل البين

(فصل فى حقيقة المعجز)

معنى قولنا ان القرآن معجز على أصولنا أنه لا يقدر العباد عليه وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبى صلى الله عليه وسلم لا يصح دخوله تحت قدرة العباد وانما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه كما يستحيل عجزهم عن فعل الاجسام فنحن لا نقدر على ذلك وان لم يصح وصفنا بأنا عاجزون عن ذلك حقيقة وكذلك معجزات سائر الانبياء على هذا فلما لم يقدر عليه أحد شبه بما يعجز عنه العاجز وانما يقدر على العباد الاتيان بمثله لانه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز وقد أجرى العادة أن يتعذر فعل ذلك منه وأن لا يقدروا عليه ولو كان غير خارج عن العادة لاتوا بمثله أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه فلما لم يشتغلوا بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظامهم وزالت أطماعهم عنه وقد كنا بينا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر ووجوه النظم المستحسنة فى الاوزان المطربة للسمع ولا يحتاج فى مثله الى توقيف وأنه يتبين أن مثل ذلك يجرى فى الخطاب فلما جرى فيه فطنوا له واختاروه وطلبوا أنواع الاوزان والقوافى ثم وقعوا على حسن ذلك وقدروا عليه بتوفيق الله عز وجل وهو الذى جمع خواطرهم عليه وهداهم وبدأ دواعيهم اليه ولكنه أقدرهم على حد محدود وغاية فى العرف مضروبة لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزا ودل على عظم شأنه بأنهم قدروا على ما بينا من التأليف وعلى ما وصفنا من النظم من غير توقيف ولا اقتضاء اثر ولا تحدى اليه ولا تقريع فلو كان هذا من ذلك القبيل أو من الجنس الذى عرفوه والفوه لم تزل أطماعهم عنه ولم يدهشوا عند وروده عليهم فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم فى الوقت وكان يدعو اليه سنين كثيرة وقال عز من قائل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدى بان أنه خارج عن عاداتهم وانهم لا يقدرون عليه وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لان ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن وهذا فى البلغاء منهم دون المتأخرين فى الصنعة والذى ذكرناه يدلك على أنه لا كلام أزيد فى قدر البلاغة من القرآن وكل من جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله فى البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال ولو لم يكن جرى فى المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزا لكان

Digitized by Google

يجوز أن تجرى عادات الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التى أنبأ أنها تقع فى الثانى فلا يخرج من أن يكون متأولا على مايقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه مايبطله من شبهة سابقة تقدح فى معجزته أو تعارضه فى طريقه وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك فى وجه دلالته واعجازه وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه ثم قال ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى فاخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى رده اما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم وكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه وبأنهم لا يتبين لهم وجه الاعجاز فيه لانه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الامور وأنه اذا تحداهم الى ماهو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على مانبينه فى وجه هذا الفصل الى أن قال قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد والذى ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور فكرهنا سرد القول فيها فليتأمل المتأمل مادللناه عليه يجده كذلك ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم فأخبر أن الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه وأن ذلك يكفى فى الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم ويدل عليه قوله عز وجل تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقوله أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته فدل على أنه جعل قلبه مستودعا لوحيه ومستنزلا لكتابه وأنه لو شاء صرف ذلك الى غيره وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه ولذلك اشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التى وصفناها فبان بهذا وبنظائره ماقلنا من أن نبأ نبوته صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته وصاره من الحكم فى دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها الا بأمر زائد ووصف منضاف اليها لان نظمها ليس معجزا وان كان مايتضمنه من الاخبار عن الغائبات والغيوب معجزا وليس كذلك القرآن لانه يشاركها فى هذه الدلالة ويزيد عليها فى ان نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه وحل فى هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه فى الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله وان اختلف الحال فى ذلك البشر بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة وأمر يفوق ماعرفوه من الفصاحة وأما نظم القرآن فقد قال أصحابنا فيه ان الله

Digitized by Google

تعالى يقدر على نظم القرآن الرتبة التى لا مزيد عليها فقد قال مخالفونا ان هذا غير ممتنع لان فيه من الكلمات الشريفة الجامعة للمعانى البديعة وانضاف الى ذلك حسن الموقع فيجب أن يكون قد بلغ النهاية لانه عندهم وان زاد على ما فى العادة فان الزائد عليها وان تفاوت فلا بد من أن ينتهى الى حد لا مزيد عليه والذى يقول انه لا يمتنع ان يقال انه يقدر الله تعالى على أن يأتى بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله وأما قدرة العباد فهى متناهية فى كل ما يقدرون عليه مما تصح قدرتهم عليه

(فصل فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم وأمور تتصل بالاعجاز)

ان قال قائل اذا كان النبى صلى الله عليه وسلم أفصح العرب وقد قال هذا فى حديث مشهود وهو صادق فى قوله فهلا قلتم ان القرآن من نظمه لقدرته فى الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره قيل قد علمنا أنه لم يتحدهم الى مثل قوله وفصاحته والقدر الذى بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرين وكلام الخطيبين فى الفصاحة وذلك مما لا يقع به الاعجاز وقد بينا قبل هذا أنا اذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور وبين نظم القرآن تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبى صلى الله عليه وسلم معجز وان كان دون القرآن فى الاعجاز فان قيل لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت فى أنه هل هو من القرآن ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط وقد يجوز أن يكون شذ عن مصحفه لا لانه نفاه من القرآن بل عول على حفظ الكل اياه على أن الذى يروونه خبر واحد لا يسكن اليه فى مثل هذا ولا يعمل عليه ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الادعية على ظهر مصحفه وهذا نحو ما يذكره الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما ونحن لا ننكر أن يغلط فى حروف معدودة كما يغلط الحافظ فى حروف وينسى وما لا نجيزه على الحفاظ مما لم نجزه عليه ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك وكان يظهر وينتشر فقد تناظروا فى أقل من هذا وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه وقد علمنا اجماعهم على ما جمعوه فى المصحف فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالاجماع المتقرر والاتفاق المعروف ويجوز أن يكون الناقل اشبه عليه لانه خالف فى النظم والترتيب فلم يثبتهما فى آخر القرآن والاختلاف بينهم فى موضع الاثبات غير الكلام فى الاصل الا ترى أنهم قد اختلفوا فى أول ما نزل من

القرآن فمنهم من قال قوله اقرأ باسم ربك ومنهم من قال يا أيها المدثر ومنهم من قال فاتحة الكتاب واختلفوا أيضا فى آخر ما أنزل فقال ابن عباس اذا جاء نصر الله وقالت عائشة سورة المائدة وقال البراء بن عازب آخر ما نزل سورة براءة وقال سعيد بن جبير آخر ما أنزل قوله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وقال السدى آخر ما أنزل فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ويجوز أن يكون فى مثل هذا خلاف وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع ولو كان القرآن من كلامه لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئهما رجل واحد وكانوا يعارضونه لانا قد علمنا أن القدر الذى بين كلامهم وبين كلام النبى صلى الله عليه وسلم لا يخرج الى حد الاعجاز ولا يتفاوت التفاوت الكثير ولا يخفى كلام من جنس أو زان كلامهم وليس كذلك نظم القرآن لانه خارج من جميع ذلك فان قيل لو كان على ما ادعيتم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره قبل معرفة الفصل من وزن الشعر ووزنه والفرق بينه وبين غيره من الاوزان الى نظر وتأمل وفكر وروية واكتساب وان كان النظم المختلف الشديد التباين اذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة الا ان كل وزن وقبيل اذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه الى الفكرة والتأمل فان قيل لو كان معجزا لم يختلف أهل الملة فى وجه اعجازه قيل قد يثبت الشئ دليلا وان اختلفوا فى وجه دلالة البرهان كما قد يختلفون فى الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق فأما المخالفون فانه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام الله لان مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل الله عز وجل فى كونه معجزا لانه ان خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله أمكنه أن يأتى بمثله هذه الرتبة وكان متعذرا على غيره لفقد علمه بكيفية النظم وليس القوم بعاجزين عن الكلام ولا عن النظم والتأليف والمعنى المؤثر عندهم فى تعذر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم وقد بينا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه والمفهم قد يعلم كيفية الاوزان واختلافها وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر وقد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة واذا قالا الشعر شعر أحدهما فى الطبقة العالية وشعر الآخر فى الطبقة الوضيعة وقد يطرد فى شعر المبتدئ والمتأخر فى الحذف القطعة الشريفة والبيت النادر وما لا يتفق للشاعر المتقدم والعلم بهذا الشأن فى التفصيل لا يغنى ويحتاج معه الى مادة من الطبع وتوفيق من الاصل وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة ثم يتفق لاحدهما من اللطف فى الصنعة ما لا يتفق فى الآخر وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم وكذلك أهل الرمى يتفاضلون فى الاصابة مع العلم بكيفية الاصابة

واذا وجدت للشاعر بيتا أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد و بحسب ذلك البيت فى الشرف والحسن والبراعة ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة و يجهل نظم مثلها وان كان كذلك علم أن هذا الا يرجع الى ما قدروه من العلم أو لسنا نقول انه يستغنى عن العلم فى النظم بل يكفى علم به فى الجملة ثم يقف الامر على القدرة وهذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطرا فلو أراد أن يأتى بمثله بحيث لا يغادر منه شيأ لتعذر والعلم حاصل وكذلك قد يحسن كيفية الخط والجيد منه من الردىء ولا يمكنه أن يأتى بأرفع درجات الجيد وقد يعلم قوم كيفية ادارة الاقلام وكيفة تصوير الخط ثم يتفاوتون فى التفصيل و يختلفون فى التصوير وألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا على احداث الاجسام وانما يتعذر وقوع ذلك منا لأنا لا نعلم الأسباب التى اذا عرفنا ايقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الاجسام وقد ذهب بعض المخالفين الى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه ومن قبله لم يكن معجزا وهذا قول أبى هاشم وهو ظاهر الخطا لأنه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن وان لم يتعذر عليهم فعل مثله وانما تعذر بازاله ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله وان كانوا فى الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله فهو قولنا وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بينا لان معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله وكان ذلك متعذرا قبل نزوله وبعده فأما الكلام فى أن التأليف هل له نهاية فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه فمنهم من قال ليس لذلك نهاية كالعدد فلا يمكن أن يقال انه لا يتأتى قول قصيدة الا وقد قيلت من قبل ومنهم من قال ان ماجرت به العادة فله نهاية ومالم تجر به العادة فلا يمكن أن تعلم نهاية الرتبة فيه وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلام ما حد فى العادة ولا سبيل الى تجاوزه ولا يقدر فان القرآن خرق العادة فزاد عليها

﴿ فصل ﴾ ان قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه قيل لا بد من ذلك لأنا لو نعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أتى بالقرآن وظهر ذلك من جهته لم يمكن أن يستدل به على نبوته وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة فأتى بها بلدا وادعى ظهورها عليه وأنها معجزة له لم تقم الحجة عليهم حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه وقد حققت أن القرآن أتى به النبى صلى الله عليه وسلم وظهر من جهته و جعله علما على نبوته وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا

﴿ فصل ﴾ قد ذكرنا فى الابانة عن معجز القرآن وجيزا من القول رجونا أن يكفى وأملنا أن يقنع والكلام فى أوصافه ان استقصى بعيد الأطراف واسع الأكناف لعلو شأنه

Digitized by Google

وشريف مكانه والذى سطرناه فى الكتاب وان كان موجزا وأمليناه فيه وان كان خفيفا فانه ينبه على الطريقة ويدل على الوجه ويهدى الى الحجة ومتى عظم محل الشئ فقد يكون الاسهاب فيه عيا والاكثار فى وصفه تقصيرا وقد قال الحكيم وقد سئل عن البليغ متى يكون غنيا فقال متى وصف هوى أو حبيبا وصل أعرابى فى سفره ليلا فطلع القمر فاهتدى به فقال ما أقول لك أقول رفعك الله وقدر فعك أم أقول نور لك الله وقد نور لك أم أقول جملك الله وقد جملك ولولا أن العقول تختلف والأفهام تتباين والمعارف تتفاضل لم نحتج الى ما تكلفنا ولكن الناس يتفاوتون فى المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا فى معرفة هذا الفن أو يجتمعوا فى الهداية الى هذا العلم لاتصاله بأسباب وتعلقه بعلوم غامضة الغور عميقة القعر كثيرة المذاهب قليلة الطلاب ضعيفة الأصحاب وبحسب تأتى مواقعه يقع الافهام دونه وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه أنشدنى أبو القاسم الزعفرانى قال أنشدنى المتنبى لنفسه القطعة التى يقول فيها

وكم من عائب قولا صحيحا ★ وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه ★ على قدر القرائح والعلوم

وأنشدنى الحسن بن عبد الله قال أنشدنا بعض مشايخنا للبحترى

أهز بالشعر أقواما ذوى سنة ● لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا
على نحت القوافى من مقاطعها ★ وما على لهم أن تفهم البقر

فاذا كان نقد الكلام كله صعبا وتمييزه شديدا والوقوع على اختلاف فنونه متعذرا وهذا فى كلام الآدمى فما ظنك بكلام رب العالمين قد أبنا لك أن من قدر على أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام لا يعرف من البلاغة الا القليل ولا يفطن منها الا اليسير ومن زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرنا من قبل عنهم فى الشعر فهو متطرف. بلى ان كانوا يقولون أن هذه من وجوه البلاغة وغرر البديع وأصول اللطيف وأن ما يجرى مجرى ذلك وبشاكله ملحق بالأصل ومردود على القاعدة فهذا قريب وقد بينا فى نظم القرآن ان الجملة تشتمل على بلاغة منفردة والاسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف ثم الفواتح والخواتم والمبادى والمثانى والطوالع والمقاطع والوسائط والفواصل ثم الكلام فى نظم السور والآيات فى تفاصيل التفاصيل ثم فى الكثير والقليل ثم الكلام الموشح والمرصع والمفصل والمصرع والمجنس والموشى والمحلى والمكلل والمطوق والمتوج والموزون والخارج عن الوزن والمعتدل فى النظم والمتشابه فيه ثم الخروج من فصل الى فصل ووصل الى وصل ومعنى الى معنى ومعنى فى معنى والجمع بين المؤتلف والمختلف والمتفق والمتسق وكثرة

التصرف وسلامة القول فى ذلك كله من التعسف وخروجه عن التعمق والتشدق وبعده عن التعمل والتكلف والالفاظ المفردة والابداع فى الحروف والادوات كالابداع فى المعانى والكلمات والبسط والقبض والبناء والنقض والاختصار والشرح والتشبيه والوصف وتميز الابداع من الاتباع كتميز المطبوع عن المصنوع والقول الواقع عن غير تكلف ولا تعمل وأنت تتبينه فى كل ماتصرف فيه من الانواع أنه على سمت شريف ومرقب منيف يبهرا ذا أخذ فى النوع الربى والأمر الشرعى والكلام الالهى الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت وشرف الجبروت ومالا يبلغ الوهم مواقعه من حكمة واحكام واحتجاج وتقرير واستشهاد وتقريع واعذار وانذار وتبشير وتحذير وتنبيه وتلويح واشباع وتصريح واشارة ودلالة وتعلم أخلاق زكية وأسباب رضية وسياسات جامعة ومواعظ نافعة وأوامر صادعة وقصص مفيدة وثناء على الله عز وجل بما هو أهله وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه واخبار عن كائنات فى التأنى صدقت وأحاديث عن المؤتنف تحققت ونواه زاجرة عن القبائح والفواحش واباحة الطيبات وتحريم المضار والخبائث وحث على الجميل والاحسان تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج ونظم أنيق ومعرض رشيق غير متعاص على الاسماع ولا متلوع على الأفهام ولا مستكره فى اللفظ ولا متوحش فى المنظر غريب فى الجنس غير غريب فى القبيل ممتلئ ماء ونضارة ولطفا وغضارة يسرى فى القلب كما يسرى السرور يمر الى مواقعه كما يمر السهم ويضىء كما يضىء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العباب جموح على المتناول المنتاب كالروح فى البدن والنور المستطير فى الأفق والغيث الشامل والضياء الباهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله وصح جهله اذا الشعر سمت قد تناولته الألسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس وضرب الشيطان فيه بسهمه وأخذ منه بحظه وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلا وأقرب مأخذا وأسهل مطلبا ولذلك قالوا فلان مفحم فأخرجوه مخرج العيب كما قالوا فلان عى فأوردوه مورد النقص والقرآن كتاب دل على صدق متحمله ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها وبرهان شهد له براهين الأولياء المتقدمين وبينة على طريقة ماسلف الأولون حيرهم به اذ كان من جنس القول الذى زعموا انهم أدركوا فيه النهاية وبلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم كما عرف قوم عيسى نقصانهم فما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج والوصول الى أعلى مراتب الطب فجاءهم بما بهرهم من احياء الموتى وابراء الأكمه والابرص وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم وكما

سخر لسليمان من الرياح والطير والجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة وبدائع من اللطف ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفا واحدا وبقي حكمها الى يوم القيامة أنظر وفقك الله لما هديناك اليه وفكر في الذي دللناك عليه فالحق منهج واضح والدين ميزان راجح والجهل لا يزيد الا غما ولا يورث الا ندما قال الله عز وجل قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب وقال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وقال يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا على حسب ما آتى من الفضل وأعطى من الكمال والعقل تقع الهداية والتبيين فان الأمور تتم باسبابها وتحصل بآلتها ومن سلبه التوفيق وحرمه الارشاد والتسديد فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فاحمد الله على ما رزقك من الفهم ان فهمت وقل رب زدني علما وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وان ارتبت فيما بيناه فازدد في تعلم الصنعة وتقدم في المعرفة فسيقع بك على الطريق الأرشد ويقف بك على الوجه الأحمد فانك اذا فعلت ذلك أحطت علما وتيقنت فهما ولا يوسوس اليك الشيطان بانه قد كان من هو أعلم منك بالعربية وأرجح منك في الفصاحة أقوام وأقوام ورجال ورجال فكذبوا وارتابوا لأن القوم لم يذهبوا عن الاعجاز ولكن اختلفت أحوالهم فكانوا بين جاهل وجاحد وبين كافر نعمة وحامد وبين ذاهب على طريق الاستدلال بالمعجزات وحائد عن النظر في الدلالات وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ومستهين بامر الأديان وغاو تحت حبالة الشيطان ومقذوف بخذلان الرحمن وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة وهلا جعلت بازاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن اسلامه وكعب بن زهير في صدق ايمانه وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا على أن الصدر الأول سافهم الانجم زاهر أو بحر زاخر وقد بينا أن لا اعتصام الا بهداية الله ولا توفيق الا بنعمة الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فتأمل ما عرفناك في كتابنا وفرغ له قلبك واجمع له لبك ثم اعتصم بالله يهدك وتوكل عليه يغنك ويجرك واسترشده يرشدك

وهو حسبي ونعم الوكيل ﴿ تم طبع هذا الكتاب

النفيس في ١٥ الحجة سنة ١٣١٥ هجرية

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

وأزكى التحية

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

Restored through a grant from

T.S. Matthews '22
in memory of
Juliana Cuyler Matthews

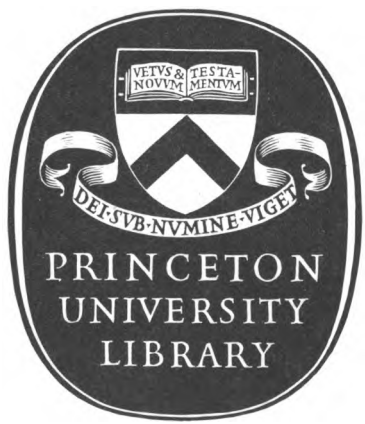

Digitized by Google